رحلة إلى محيط هادىء

مجموعة قصصية

تأليف

عبد الباسط بيوض

obeikan.com

طبعة ٢٠١٧

بيوض، عبد الباسط

رحلة ألى محبط هادىء مجموعة قصصية/ عبد الباسط بيوض، .- الجيزة: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامي، ٢٠١٦ .

١٧٦ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٧ ٥١٥ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة.

أ - العنوان

٨١٣٠,١

obeikan.com

رحلة إلى محيط هادىء

مجموعة قصصية

تأليف

عبد الباسط بيوض

obeikan.com

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة

المستشار

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٦/٢٧٤٢٢

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٥١٥-٧

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٧

الكتاب : رحلة إلى محيط هادىء

المؤلف : عبد الباسط بيوض

الغلاف : إسلام البلاط

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

atlas@innovations-co.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

obeikan.com

إهـــداء

إلى معالى المستشار / محمد بك صفوت شاكر وكيل النائب العام اهدى هذا الكتاب.

المؤلف

obeikan.com

obeikan.com

مقـــدمة

هـذه ذكريـات وقصاصـات وخواطـر وقصـة قصيـرة .. مـرت بـي علـى مـدار أيـام الشـباب الأولـى.. الأيـام الدراسـية والاجتماعيـة الجديـدة وربمـا العاطفيـة وبالتأكيـد الخياليـة.. فيهـا البسـمة والحكمـة والفكاهـة والمغامـرة والخبـرات والمطبـات والمواقـف الصعبـة والمواقـف السـهلة!

تمنيـت أن أسـتطيع أن أقدمهـا في أسـلوب بسـيط سـريع الإيقـاع وسـهل المعنـى.. وأحسـبني اجتهـدت في ذلـك..

إن مهنتـي.. المحامـاة .. مهنـة البحـث وراء المعنـى القريـب إلـى المعنـى البعيـد.. مهنـة الاسـتماع والإنصـات لمشـكلات وآلام النـاس.. وكذبهـم وخداعهـم كذلـك لإيهامـك بأنهـم مظلومـون ليظفـروا بتأييـدك للدفـاع عنهـم .. وهـذه العلاقـات المتشـابكة في النفـوس البشـرية والتـي تقذفـك فيهـا المحامـاة .. تخلـق فيـك فلسـفة خاصـة تجـاه معطيـات الحيـاة المتعـددة..

مـن مـداد هـذه التجـارب والخبـرات وكذلـك الآراء التـي كونتهـا – قـدر اسـتطاعتي – عـن معانـي الاشـياء المتصلـة والمنفصلـة .. كانـت هـذه السـطور ..

obeikan.com

obeikan.com

جزر بولينزيا

(١)

اليوم هو الإثنين ٩/ ٧ / ٢٠١٢ .. قررت السفر للقاهرة لإنهاء بعض الأعمال المهمة وقبل شهر رمضان الكريم شهر العبادة والتقرب إلى الله... لكن هذه المرة تختلف، فلم يكن لدي وقت لحجز تذكرة سفر.. أى أن السفر سيكون شاقًّا فى القطار .. ولن اصطحب معى جهاز الحاسوب.. إذًا سأنقطع عن أخبار العالم من حولى .. والطامة الكبرى أننى اتصلت بالفندق الذى أرتاده دائمًا، وهو غاية فى الراحة والخدمة الممتازة ويخصص لي غرفة معينة فى الدور التاسع، تتيح لى من شرفتها أن أجلس وأحتسى كوبًا من الشاى قبل الغروب ثم أمارس الكتابة، إذاً هذه المرة ستكون متعبة جدًّا لى ... على أية حال .. فمهنة المحاماة علمتنى الصبر والجلد وتحمل المشقة الذهنية والبدنية.

عكفت هذه الليلة فى اختيار الكتب التى ستكون صديقة لى في رحلتى .. فأجمل شيء فى السفر هو القراءة .. وأنا عادة أقرأ كتابًا فى الذهاب ومثله فى الإياب، وكتابين آخرين فى الفندق .. ولِما اكتنف هذا السفر وهذه الرحلة من غموض فقد وقع اختيارى على كتاب فى أدب الرحلات.. وأنا أعشق أدب الرحلات

منذ أن عرفت أنيس منصور وقرأت له كل كتب الرحلات التى ألّفها ... الكتاب بعنوان رحلة كون ـ تيكى (٦ رجال وببغاء على طوف فى المحيط الهادى) للكاتب والمستكشف النيرويجى ثور هايردال.. والقصة جميلة جدًّا، تصف فكرة هذا الكاتب واعتقاده بأن الحضارات القديمة ربما تكون قد انتشرت نتيجة لرحلات بحرية قامت بها الشعوب البدائية عبر البحار والمحيطات .. ففى عام ١٩٤٧ أبحر هايردال مع طاقم يضم خمسة أفراد على ظهر طوف بدائى اسمه (كون ـ تيكى) من شاطئ بيرو الغربى إلى جزر بولينزيا فى البحر الجنوبى قاطعًا بذلك ٤٣٠٠ ميل فى قلب المحيط الهادى، لإثبات أن أهل هذه الجزر قد انتقل أجدادهم إلى هناك قادمين من أمريكا الجنوبية على مثل هذه الأطواف البدائية كما تقول أساطيرهم...

الكتاب ممتع جدًّا واستمتعت بقراءته كاملاً فى السفر ذهابًا إلى القاهرة ... والمسافة بينى وبين القاهرة بالقطار الفاخر السريع هى ٩ ساعات كاملة..

واصطحبت معى كتب أخرى، ولكن لم أستطع قراءتها لأسباب ستعرفونها أثناء قراءتكم للرحلة العجيبة..

فى صباح اليوم التالى، الثلاثاء ذهبت من قريتى إلى المدينة حيث المحكمة ومحطة القطار .. وكان يتبقى على وقت قيام

القطـار سـاعتين .. فذهبـت إلـى المحكمـة وأنهيـت بعـض الأعمـال علـى عجالـة وسـألت زملائـى عمـا إذا كنـت أسـتطيع أن أقـدم لهـم خدمـة فـى القاهـرة.

بعـد أن فرغـت مـن ذلـك كلـه وأثنـاء خروجـى مـن بـاب المحكمـة .. كانـت هنـاك سـيارة ترحيـلات كبيـرة تدخـل وتسـد البـاب بالكامـل .. وقفـت السـيارة وصافحنـى الضابطـان .. واحـد منهـم يدعـى صابـر وهـو ضابـط مباحـث بالمركـز، والثانـى النقيـب خالـد عبـد الرحمـن ضابـط نظـام ورئيـس نقطـة قريتـى .. ودعـوا لـى بالوصـول بسـلامة اللّه، وطلبـوا منـى أن أبلـغ مصطفـى بـك يـس (مأمـور مركـز شـرطة دشـنا سـابقًا) تحياتـى، فهـم يعلمـون تمامًـا أننـى سـأقوم بزيارتـه.

بعـد مصافحتـى لهمـا .. ذهبـت إلـى محطـة القطـار.. والأسـئلة ازدحمـت فـى رأسـى.. كيـف أسـافر وأركـب القطـار دون حصولـى علـى تذكـرة.. إذًا فـلا مفـر مـن ان اسـافر واقفـا طـول الرحلـة ... وأجريـت اتصـالاً أخيـرًا بالفنـدق أكـدوا لـى أنـه لا يوجـد غـرف خاليـة علـى الإطـلاق.. إذًا سـأصل القاهـرة ليـلاً ولـن أجـد فندقًـا مناسـبًا.. وأنـا أحمـل أوراقًـا مهمـة جـدًّا!!! مـا العمـل؟ ... لا أعـرف..

أخيـرًا وصـل القطـار ... وصعـدت .. ولـم أجـد فعـلاً مقعـدًا خاليًـا.. بـل وصـل الحـد إلـى أنـه مـن الصعـب أن أجـد مكانًـا لأقـف فيـه!!!

بعد عناء طويل.. أمسكت بالكتاب الذى ذكرته منذ قليل ليكون أنيسًا لى من ناحية... ومن ناحية أخرى ليكون حماية لي من الحملقة فى الآخرين دون قصد منى...

ووضعت حقيبتى وجاكيت الحلة على الرف المخصص لذلك.. ووقفت فى طرقة عربة القطار..الناس من كل صنف ولون.. ومعتقد .....

ماذا سيحدث فى القطار من أحاديث.. وماذا ينتظرنى فى القاهرة؟

●●●

obeikan.com

(٢)

كان القطار مزدحمًا ازدحامًا شديدًا .. وأجمل ما فى السفر هو هذا الشعور بالقلق والتوتر.. يقول الفيلسوف الألمانى نيتشه (عش فى خطر).. والحياة فى خطر وقلق تخرج أفضل ما فيك، إنها اختبار وامتحان مفاجئ لقواك وأحاسيسك ومشاعرك وجسدك.. تجعلك تقيس وتعرف مدى تحملك وصبرك...

وقفت فى ربع العربة الأول.. كان على المقعدين الذين أواجههما وأنا أقف أعطى ظهرى للناحية اليمنى من القطار، ووجهتى للناحية الأخرى، مقعدان متتاليان..

الأول يجلس عليه رجل يشارف الخامسة والخمسين من عمره وبجواره ابنته.. ولا تستطيع أن تجزم ما إذا كان هذا الشيخ مبصرًا أم ضريرًا .. فعيناه تبدوان كفيفتان.. أما ملاحظته وحديثه يدل على أنه مبصر.. وهو رجل يبدو على سمته الطيبة الشديدة.. حينما جاء وقت الظهر قام وصلى فى طرقة العربة بجوارنا رغم الازدحام.. وبعد أن فرغ من صلاته جلس على مقعده ورفع كفيه، وأخذ يدعو الله عز وجل لأهل سوريا. ذكرتنى نبرته فى دعائه بالشيخ أحمد فرحات - رحمه الله - فى دعاء صلاة الفجر بالإذاعة المصرية... ويبدو على الرجل رغم بساطة سمته وهندامه وثيابه هو وابنته، التى تشارف على السادسة عشرة من

عمرها على ما يبدو.. إنه رجل معتدل ولديه ثقافة بسيطة تؤهله أن تستمع كلامه على أساس الحكمة من رجل طيب..

وأمامه مباشرة يجلس شاب وزوجته.. يبدو عليهما يسر الحال.. يبدو على الزوج الشاب الطيبة على ملامح وجهه.. ويبدو على زوجته الاعتزاز الكامل بنفسها وحسبها ونسبها.. فهى تتحرى ألا تنتبه للأحداث التى تجرى فى عربة القطار أو تنظر لأحد... كانت تحمل طفلة رضيعة، وزوجها يحمل طفلاً صغيرًا يبلغ الثالثة ربما أو مايزيد عن عدة أشهر...

من وراء الشيخ يجلس رجلان .. أحدهما بجوار النافذة مجند فى الجيش.. والآخر رجل يبدو عليه أنه من أحد قرى الجنوب.. يرتدى جلبابًا رماديًّا صوف بياقة عريضة.... جاحظ العينين.. والأنف كبير مفلطح.. يبدو لك من أول وهلة أنه من سلالة الفراعنة، ولكن ليس من علية القوم....

وهو عصبى المزاج.. ولكنه يحمل طيبة أهل الجنوب..

أما من ورائى فكانت تجلس فتاة وجدتها... إنهن من أهل النوبة.. عرفت ذلك من لغتهم العجيبة التى لا يعرفها أحد سواهم، والفتاة مهذبة وطيبة القول متفانية فى خدمة جدتها الطاعنة فى السن..

فتحت الكتاب الذى ذكرته فى البداية.. رحلة كون - تيكى (٦رجال وببغاء على طوف فى المحيط الهادى).. وفى الواقع أننى كنت فى عجلة من أمرى لأفتح الكتاب حتى لا أحملق فى الآخرين كما ذكرت آنفًا.. خاصة وأن العربة بها نساء مرضعات وفتيات.. وأنقذنى الكتاب والكاتب من هذا كله.. فقد كان يبدو على السيدة الشابة التى تجلس بجوار زوجها وعلى حجرها رضيعتها الضجر والضيق الشديد من الازدحام.. وأن حريتها مقيدة، وأردت أن أعطيها حريتها..

وفتحت الكتاب وقرأت مقدمته الممتعة.. وكانت تتحدث فى عناء الكاتب والمستكشف فى تجهيز الطوف الذى سيبحر به فى المحيط الهادى!! وظننت أنى لا أقل منه عناء فى سفرى هذا.. فلم تمر ساعة حتى شعرت بألم فى قدمى غير محتمل.. فما بالى بالساعات الطويلة المتبقية!!

كان القلق الممزوج بتوتر يصاحبنى أنا وأمثالى الذين قطعوا تذاكرهم داخل القطار، بالإضافة للغرامة ومع ذلك يقفون ولا يجدون لهم مقعدًا.. وهذا ليس ذنب أحد، إنه ذنبنا نحن الذين فضلنا أن نصل القاهرة كما يحلو لنا، ويتفق مع مصالحنا، فما ذنب السكة الحديد؟ إن توفير عربات كافية أو قطارات سيدخلنا فى متاهات سياسية واقتصادية شائكة، نحن فى غنى عنها فى سفرنا ومغامراتنا الدائمة..

لم يقطع هذا الهدوء سوى بائع شاى متنقل.. دخل فى إحدى محطات مراكز سوهاج، الرجل سمين جدًّا وقصير، يخيل إليك أنه كرة تتدحرج فى العربة.. يمسك فى إحدى يديه براد شاى كبيرًا من الماء المغلى واليد الأخرى أكواب بلاستيك مرصوصة داخل بعضها البعض بعناية ... صوته أجش خشن .. يتصبب العرق منه صبًّا .. وحينما دخل عربة القطار انحشر جسده فى طرقة العربة.. وسار جاهدًا لكى يواصل مناداته لسلعته ... وحينما اقترب منى نظر لى بوجه متجهم ومقطب الجبين وسألنى فى غضب أن انزاح من طريقه وأدعه يمر.. و سألته ماذا أفعل.. وتذكرت المقولة الفرنسية التى كانت من نتاج ثورتها:

Le laissez-faire laisser passer

دعه يعمل دعه يمر... ووجدت نفسى متسائلاً ... هل أنا مناهض للثورات؟ .هل أنا اشتراكي أقف ضد حريات الرأسماليين؟ .. ورجعت فى كلامى وتفكيرى.. فهو إنسان بسيط يسعى على رزقه، وجل ما يصبو إليه وحلمه فى الحياة هو أن يفرغ من بيع هذه الأكواب البلاستيك ويبيع كل ما لديه من شاى، لا أنا رأسماليًا من أصحاب الياقات البيضاء أو اشتراكيًا أو إقطاعيًا تم تأميم ممتلكات أجدادى فى عهد عبد الناصر! وضحكت فى نفسى لتخيلى هذا كثيرًا .. والركاب بجوارى أخذوا منى مهنتى..

فقد سكت أنا ودافعوا هم عنى.. وصبوا لعناتهم عليه قائلين له إنه هو المخطئ.. فهناك خدمة داخل القطار، وأنه لا يحق لأحد اقتحام القطار بهذه الصورة وعرض السلع الرخيصة هذه.... دخل الرجل وخرج دونما يشترى أحد منه كوبًا واحدًا من الشاى.. وشعرت أنا بالذنب، دون سبب.

خرج الرجل ودخل بعض الركاب يبحثون عن مقاعد خالية.. والغريب جدًّا أنهم لم ينتبهوا أن هناك من يقف فى طرقات العربة... فلا مكان لهم! إذًا علام البحث و التنقيب؟!.. لا أعرف.. ربما هى طبيعة بشرية.. فطبيعتنا البشرية مليئة بالأشياء الغريبة وبالنتائج المتناقضة مع المقدمات أو العكس..

تحرك القطار وانحشر فى العربة منهم البعض .. والبعض الآخر أخذ يسعى بين العربات علّه يعثر على مقعد..

أخذت فى القراءة بعمق علها تنسينى الألم غير المحتمل فى قدمى من الوقوف.. وقد نجحت فى ذلك نجاحًا كبيرًا.. فالكاتب بارع فى وصف كل شيء بدقة وسلاسة. فقد وصلت للفصل الثالث حيث وصل إلى أمريكا الجنوبية.. الأكوادور للبحث عن شجرة البلزا هذه التى استخدمها االقدماء فى صناعة الطوف، وقارنت بين بحثه المرهق لهذه النوعية من الخشب النادر وبين بحثنا فى القطار وتطلعنا لمقعد خالى يريح أقدامنا وأجسادنا..

لم يقطع استغراقى سوى بكاء الرضيعة التى تنام على حجر والدتها التى تجلس أمامى هى وزوجها.. وشعرت أنا بإحراج.. فهى تريد أن ترضع ابنتها.. والقطار به الكثيرون.. لكنها أسدلت حجابها حتى غطت وجه رضيعتها، وأرضعت ابنتها.. وحمدت الله على نعمة ثور هايردال هذا المؤلف الذى جعلنى أستغرق فى القراءة ولا أتسبب فى إحراجها هى أو غيرها...

فجأه ينتفض الزوج بجوارها ويقف وينظر لأعلى قائلاً إن لبنًا يسقط من أعلى!!! إذًا سقف القطار يمطر لبنًا!!!! ونظرت أنا مسرعًا ووجدت بالفعل أن اللبن يسقط بغزارة.. ولملمت كتابى فى يدى.. لكى أشارك دون قصد منى فى البحث وراء ما يحدث..... وبسرعة وربما طول قامتى ساعدنى فى ذلك قليلاً أن أكتشف ما يحدث، وجدت أن هناك كيسًا كبيرًا يخرج منه هذا اللبن!!! وبسرعة سحب الزوج هذا الكيس.. وكان ثقيلاً ممتلئًا... لم يتعرف على صاحبه أحد.. وفجأة استيقظ الشيخ الكفيف قائلاً إنه لى أنا... وهنا شعرت أنا بالقلق الشديد.. فالشيخ الطيب ربما سيسمع كلامًا من الزوج أو من أحد الركاب يحرجه .. ولكن الزوج كان مهذبًا فلم يتكلم ... ساعدناه جميعًا فى وضع هذا الكيس الممتلئ بقوارير اللبن أسفل مقعده... ثم ساد الصمت مرة أخرى، الشيخ الطيب الضرير شعر بإحراج

شديد... تذكرت المثل القائل: العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامة.. الرجل لم يلمه أحد.. وبعد هنيهة أجرى اتصالاً بمن كان سببًا فى ذلك.. وقص عليه ما حدث من إزعاج للركاب.. وتعاطفنا جميعًا مع الشيخ الطيب، ومر الموقف على خير. طوال هذه الساعات كنت أشعر بألم شديد ومتعة أشد لقراءة الكتاب الممتع وأبحرت مع الكاتب والكتاب فى أعماق المحيط الهادى.. هل سيصل إلى جزر بولينيزيا فى الجنوب على بعد ٤٣٠٠ ميل فى قلب المحيط الهادى؟!!!

كانت الأحداث تمر طبيعية فى العربة حتى دخل شاب فى العقد الثالث من عمره... ووقف على مقربة منى.. بل كاد أن يكون فى مواجهتى تمامًا.. ويبدو على سمته الثقافة والعلم ومن هندامه أنه ميسور الحال.... أخذت أنا أكمل رحلتى مع الكتاب.. وأخرج هو كيسًا صغيرًا من الحلوى وأعطى واحدة لى.. رفضت فى أدب وذوق عدة مرات ولكنه ألح.. ولم أجد بدًّا من ذلك.. كنت أعرف أن هذا هو فتح باب للنقاش والحديث.. وأنا لا أريد أن أسهب فى نقاش داخل القطار حتى لا ينزعج أحد أو أكون مصدرًا لضيق أحد منى.. لكنه تحدث معى... ودار نقاش بصوت منخفض عن السياسة، وبطبيعة الحال عن الأوضاع الراهنة.. وودت بطريقة غير مباشرة أن أعرف انتماءه

السياسى كى أحدد طبيعة ومدى النقاش معه.. ووجدته لا ينتمى لأى تيار سياسى معين.. إنه صحفى فى جريدة اليوم السابع.... وأعجبت بثقافته وأدبه الجم فى الحديث.... لكن الرجل الذى تحدثت عنه فى البداية، والذى كان يجلس وراء الشيخ الضرير صاحب الجلباب الصوف والأنف المنبعج دخل فى الحوار، كيف لا أعرف، على الرغم من أننا كنا نهمس همسًا.... وعلا صوته فى النقاش بدون سبب.. ثم أشار بالسبابة لأعلى ونظر بعينيه الجاحظتين إلى سقف العربة، وثبتت عيناه على ذلك للحظات فى قالب مضحك جدًّا ثم أخذ فى الصياح ... وعرفنا أنه خريج إحدى كليات الأزهر من قرابة ٢٠ عامًا.. تارة يقول إنه مدرس، وتارة يقول إن الدولة لم تكفل له عملا.. ازدادت حيرتنا فيه.. فقد كان صوته جهوريًّا جدًّا مما تسبب فى إزعاج باقى الركاب، خاصة الزوجة وزوجها الجالسين أمامى.. فقد خرج الزوج من شرنقة أدبه وطيبة ملامحه، وسب ولعن هذا النقاش وهذا الشاب بألفاظ ليست مهذبة.. وهذا ما كنت أخشاه.. وابتعدت عنهم مسافة مترين لكى لا تلاحقنى هذه اللعنات.. وأنا لست فى حاجة لها.. فيكفينى ألم قدمى غير المحتمل بالمرة.. وأن أى لعنة أخرى ربما تجعلنى مغشيًّا علىّ.... احتدم النقاش بينهما.. الرجل الأزهرى يسب ويلعن فى الرئيس، وأنه لم يفعل شيئًا طوال ٧ أيام كاملة من توليه الرئاسة، ولم يسمع خبرًا واحدًا يفرحه أو يعطيه أملاً.

زاد اعجابى بالشاب الصحفى.. ليس لرده وقوة إقناعه وثقافته.. بل على رباطة جأشه وتمتعه بقدر كبير من الدبلوماسية التى يفتقدها كثير جدًا من الشعب المصرى، خاصة الذين يدعون الثقافة والفهم!!... فقد كان الرجل يتحدث بصوت عالٍ جدًا.. وعلى الرغم من ذلك استطاع الشاب أن يمتص غضبه.. وأن يحيل نظرة الانتصار التى صاحبت نظرات الكثيرين المتعاطفين مع ابن الجنوب ضد الصحفى.

الشاب استطاع أن يأخذ الكرة فى ملعبه.. فقد انبهر به البسطاء والعامة والمثقفون أيضًا من براعته فى دفاعه عن الثورة المصرية ....

بعد أن انتهى هذا الشاب من هذه المعركة حامية الوطيس.. رجع لى وقال: ما رأيك....؟ ابتسمت وقلت له: جيد.

بعد ذلك كان القطار قد شارف على الوصول إلى القاهرة... وأنا أعشق القاهرة عشقًا فريدًا... ولا يكاد يمضى شهر وأزورها.. وكلما اقترب القطار من الوصول اقتربت فرحتى بنزولى القاهرة.. واقتربت حيرتى من أمرى ومن أمر الفندق.. فليس هناك حجز.. ومن المفارقات أن القطار بدأ فى دخول محطة مصر.. رمسيس.. وفى نفس الوقت وصل المؤلف والمستكشف ثور هايردال إلى مبتغاه.. فقد وصل إلى جزيرة بولينيزيا فى نفس المدة التى

توقعها ٩٧ يومًا، واستقبله أهل الجزيرة بترحاب وجاء الرئيس، وكان اسمه تبيورا ـ يارى نرى ـ فاتاو، وكان الوحيد الذى يتحدث الفرنسية ويعرف الكتابة فى الجزر الجنوبية لكونه عاش فى جزيرة تاهيتى التى تتحدث الفرنسية.. ونزلت من القطار فى رمسيس، ولم أتعشم أن يستقبلنى أهل القاهرة، كما تم استقبال الرحالة المستكشف.. فلا أنا رحالة مثله ولا مستكشف .. ولا يوجد فى القاهرة من يعرف بوصولى إليها، ولا يهم أحد مجيئى إليها من عدمه.

كان الرصيف غاية فى الازدحام.... البعض كانوا أقرباءه فى انتظاره على الرصيف... أما أنا فلا أحد معى سوى الله.. وكفى به وكيلاً.... ومعى حقيبتى وكتبى.. وأحلامى.

●●●

(٣)

كانت الساعة قد اقتربت من الساعة الثامنة ليلاً.. الكل يتأهب للخروج محملاً بحقائبه فى عجالة ومحملاً بأحلامه وأمانيه .. البعض عائد للقاهرة لبلده ومدينته .. فرحًا لعودته من الجنوب حيث درجة الحرارة العالية والأحداث الأكثر اشتعالاً .. فالجنوب معظمه أصبح مرتعًا لتصفية حسابات قبلية وثأر.. فلا تمر الساعة حتى تسمع إطلاق نار كثيف وأسلحة ثقيلة من كل نوع.. ولا تخلو الأحداث اليومية من قتيل وأكثر!! البعض الآخر وصل للقاهرة زائرًا لفترة يقضى فيها مصالحه وأعماله ويعود بعد أيام.. أغلب من كان بجوارى أجرى عدة اتصالات بأقربائه أو اصدقائه، الذين ينتظرونه على رصيف المحطة.. وأنا دائمًا أحب أن أكون فى سفرى وحيدًا مثل أفكارى وأحلامى، ألا ينتظرنى أحد أو يعلم بوصولى... أحب أن أكون وحيدًا فى الفندق لا قيد على تحركاتى أو وقت نومى، وأنا قليل النوم منذ زمن بعيد، أعشق السهر حتى نور الصباح... والحياة فى الفندق توفر لى كل هذا..

لكن المشكلة الكبرى هى أننى لم أعرف وجهتى بالتحديد.. كل من نزل من القطار يعرف وجهته إلا أنا.. والفندق لا يوجد به غرف.. تعلمت من الحياة أن افضل شيء للعبور من المشكلة هى مواجهتها فى أقرب وقت دون تردد.. أن أقتحمها قبل أن تنهك قواى وأعصابى..

لذلك فقد قررت أن أتوجه إلى فندق قديم.. هذا الفندق كنت أرتاده أول أسفارى للقاهرة، ولم ألبث أن عرفت الفندق الجديد المريح المناسب الذى أنزل فيه دائمًا مرة أو مرتين فى الشهر.. والفندق القديم هذا لا يصلح للاستخدام الآدمى، يقع فى أول شارع (كلوت بك) ما إن يقع نظرك عليه إلا وشعرت أنه يجاهد الأيام جهادًا كى لا يسقط.. وكيف للسلطات أن تدع مثل هذا المبنى المتهالك الضخم فى مدخل شارع مهم فى ميدان رمسيس !!!

لا يوجد فى الفندق أى نوع من أنواع التهوية.. الفراش والغطاء هو من ذلك النوع الذى يستخدمونه فى معسكرات الجيش للمجندين كنوع من أنواع التقشف.. وكأن الفندق يقول لزواره إنهم هنا فى معسكر تدريب فى إحدى ثكنات الجيش الألمانى، وهو اختبار لقدرة وتحمل المصريين لقسوة الحياة ومواجهة الحروب فى أى وقت...

الإضاءة خافتة.. وبه تجد جميع أصناف البشر.. رجالا ونساءً ثيبات وأبكارًا!!!

المبنى من المبانى القديمة العالية ابوابه ونوافذه الضخمة جدًّا مصنوعة من الخشب العتيق.. ولا يوجد به عمال نظافة أو خدمة توصيل المشروبات والمأكولات للغرف.

وقـرارى هـذا بالتوجـه إلـى هـذا الفنـدق قـرار فـى الحقيقـة صعـب جـدًّا ولا يطيقـه أحـد.. ليـس لكونـه غيـر صالـح للاسـتخدام الآدمـى فحسـب، ولكـن لارتباطـه بذكـرى أليمـة جـدًّا لـى ... ففـى أحـد المـرات التـى كنـت أرتـاد هـذا الفنـدق منـذ زمـن.. كانـت السـاعة الثانيـة صباحـا، الهـدوء والسـكون يلـف المبنـى بالكامـل كأنـه بيـت أشـباح.. وبعـد أن رتبـت أوراقـى.. شـعرت بالنعـاس مـن إرهـاق السـفر ووعثائـه... وحمـدت اللّه علـى ذلـك كثيـرًا.. فأنـا أتوسـل للنـوم وأطلبـه حثيثًـا فـى هـذا الميعـاد ولا أجـده.... لـم تمـر دقائـق وبعـد أن رحـت فـى سـبات عميـق.. إذا بـى أسـمع طرقًـا شـديدًا علـى بـاب الغرفـة!!! والبـاب كمـا ذكـرت ضخـم جـدًّا.. لكـى تطرقـه بهـذه القـوة وتحـدث هـذا الصـوت العالـى يتوجـب أمـرًا جللاً قـد حـدث!!! نهضـت مـن نومـى فزعًـا ... الطـارق لا يكـف عـن طرقـه المتتالـى السـريع .. فتحـت البـاب لأجـد أمـين شـرطة بـزى ميـرى ويحمـل سـلاحًا ويسـألنى:

- هل انت فلان؟

- أجبته: نعم!!!

وبادرنى قائلاً:

- هيا بنا للقسم.....

- للقسم!!! لماذا..؟..

أجابني أني هناك سأعرف..

أصبت بالذهول... ماذا يحدث .. وكيف.. ولم؟

إننى لا أعرف أى سبب لذلك.. فأنا لا توجد قضايا مرفوعة ضدى من أحد ... وليست معى مشكلة مع أحد....

ثم إننى محام.. أعرف جيدًا ما يحدث من إجراءات.. وعملى معظمه فى ديوان المركز، وتربطنى بضباطه علاقة عمل واحترام متبادل... إذًا كيف يحدث هذا ولماذا؟..

أمين الشرطة الذى اقتادنى كان مهذبًا جدًّا وعاملنى بذوق وأدب، وقدر واحترم مهنتى وأعطانى الوقت كى أرتدى ملابس الخروج.. ثم طلب منى أن آخذ حقيبتى وكل أغراضى معى!!!!

وهنا بدأ القلق والتوتر يتسلل أكثر فأكثر، إذًا الأمر خطير، وهو يعلم أننى لن أرجع مرة ثانية للفندق.. ولكنى طلبت منه أن أدع أغراضى فى غرفتى فوافق.. فى الأسفل وفى صالة الاستقبال كان صاحب الفندق ينتظر أمين الشرطة فى اصطحابى بهدوء.. أوقفنى وسألنى لماذا لم آخذ حقيبتى؟ وأخبرته أن الأمر إن شاء الله لا يحتاج ذلك، وما هى إلا دقائق وسأعود للفندق.. نظر لى باستغراب وحيرة شديدين.. وكأنه يقول إن من يأخذونه فى هذا الوقت من الفندق لا يعود...

obeikan.com

خرج أمين الشرطة وهو يقتادنى للسيارة وكأننى أحد المجرمين الخطرين جدًّا.. ثم تقدم لكابينة السيارة حيث يوجد بها ضابط مباحث.. أعطاه التحية العسكرية وأخبره أنه تم إلقاء القبض على المتهم المطلوب!!!!!!

ركبت السيارة من الخلف وركب بجوارى أمين الشرطة وتحركت السيارة تشق طريقها لقسم الأزبكية.. ولأول مرة فى حياتى أشعر بهذا الشعور... إنه مزيج من الخوف والقلق والحيرة .. وما كان يخيفنى هو أن يتعدى أحد على كرامتى أكثر من ذلك الذى يحدث.. ونحن أهل الجنوب خاصة نعتز جميعًا كباقى المصريين بكرامتنا وأكثر.. وأن أى محاولة للإهانة سنرد عليها ولو كلفنا ذلك حياتنا.

أعطانى الله الصبر والثبات ورباطة الجأش..... وصلت سيارة الشرطة إلى قسم الأزبكية.. والقسم كان هادئًا فى مدخله فى هذه الساعة من الفجر.. كان هناك مجندون وعساكر يمسكون بأسلحتهم، وعددهم كبير... نظروا لى وأنا أصعد إلى الطابق العلوى وكأننى عمر المختار بين جنود الاحتلال الإيطالى.... وأنا لست عمر المختار ولا أحد غيرى...

إن آخر مرة أمسكت فيها سلاحًا كان منذ زمن بعيد.. منذ طفولتى.. حينما كنا نشاهد فيلم عنترة بن شداد.. ثم نصنع

سيوفًا من سعف النخيل الجاف ونحارب بعضنا بعض.. وكلا الفارسين الصغيرين يقومان بدور عنترة بن شداد.!!!. منذ هذا الوقت لم أحارب أحدًا ولم أشق عباب حرب ضد أحد.. ومعرفتى بتشى جيفارا تمامًا مثل معرفة بائع الشاى المتنقل الذى قابلته فى القطار بفكرة العقد الاجتماعى contrat social لجان جاك روسو .. ومعظم كتبى عبارة عن أدب إنجليزى وفلسفة.. اذا لماذا يحدث معى كل هذه الأحداث الغريبة.؟

لكن هناك طمأنينة أودعها الله فى صدرى كى أتعامل مع الحدث بعقلانية وصبر.. صعدنا إلى الطابق الثانى، حيث وحدة تنفيذ الأحكام بقسم الأزبكية!!

كانت الغرفة واسعة بها ضابط مباحث وبها أمين شرطة (بلوكامين تنفيذ الأحكام) والضابط كان مهذبًا بعض الشيء، أما أمين الشرطة فلا...

الغرفة سيئة الإضاءة والطلاء يميل إلى اللون الرمادى القريب للسواد.. والمصابيح صغيرة صفراء تفزع القلب تشعرك بأنك انقطعت عن الحياة.. ودخلت عالم آخر.

توجهت لضابط المباحث وعرفته بنفسى قائلاً له إننى لا أعرف سببًا واحدًا يحيلنى من محام أدافع عن المتهمين إلى متهم!!!! وأجابني مسرعًا أنه توجد عدة قضايا مرفوعة ضدى!!!

وبادرته قائلاً إن هذا مستحيل، ولا توجد ضدى أى قضية.. وأنا متأكد من ذلك تمامًا وأن لبسًا فى الموضوع قد وقع.... وجادلته كثيرًا وجادلنى دون جدوى.. وأخبرنا أمين الشرطة بنبرة حادة وصوت مرتفع وبألفاظ فظة ألا نستخدم الهاتف... ولكنى استخدمته.. فقد اتصلت بأحد اصدقائى لكى يأتى ويزيل اللبس فى الموضوع.. لكن للأسف صديقى نائم لا يرد.. وهنا ثار أمين الشرطة ووقف وانتفض من مقعده، واقترب منى وهددنى أننى لو فعلتها مرة ثانية سيكون هناك عقاب شديد.. ولم أذعن لتهديده.. وحاولت أن أكلم صديقى هذا مرة أخرى، إلا أن نفس الموضوع قد تكرر، قام أمين الشرطة وفى هذه المرة تحول إلى وحش.. فقد هرول إليّ هرولة مفزعة ووقف فى مواجهتى تمامًا مؤنبًا إياى بصوت مرتفع أنه سبق ونبّه عليّ بعدم تكرار هذا، كان كل شيء فى جسده ينتفض ويرتعش من شدة توتر أعصابه.. يخيل إليك أنه لاعب كرة يتحدث بأعصاب مشدودة مع غريمه... وتأهبت لأن أرد عليه إذا ما تطاول أكثر من ذلك.. على الرغم من أننى كنت متأكدًا من أنه لن يتورع من استخدام سلاحه فى قتلى إذا ما نشبت معركة معه.. لكنه ظل يخرج أنفاسًا بصوت عال كأنه فحيح أفعى....

مرت تلك اللحظة على خير.. ورجع هو وتقهقر للوراء ثم جلس على مقعده مرة أخرى.

الغريب أنه كان مسيطرًا على الغرفة ومن فيها أكثر من ضابط المباحث نفسه!!! لسبب لا أعرفه....

توجهت إلى الضابط مرة أخرى وطلبت منه أن يطلق سراحى وأننى سأتخذ إجراءً قانونيًا ما لم أخرج وعلى الفور.... الضابط أمسك كارنيه النقابة ووضعه على رأسه قائلاً: إن هذا على عينى ورأسى.. ولكن الحل ليس فى يدى.. إن الحل فى يد رئيس مباحث القسم.

وبادرته سائلاً: وأين هو؟

قال لى إنه على وصول.....

عاد الأمل مرة أخرى يتسلل إلى صدرى.. واستطعت أن أتنفس بهدوء...

لا أعرف كم بالضبط من الوقت قد مضى.....

وفيم فكرت؟.. وتركت الموضوع كله لله.

أخيرًا وصل رئيس المباحث وأجرى معه اتصالاً هاتفيًا سرد فيه حصاد الليلة وأحداثها... وقبل أن ينهى الحديث معه أخبره

عنى قائلاً: إن أحد المقبوض عليهم محام، واسمه متشابه مع اسم متهم من نفس مدينته ونفس الاسم الثلاثى... ثم سمعته يقول منهيًا حديثه بعدما تلقى الإجابة: تمام يا فندم....

نظر لى مسرعًا معطيًا لي الكارنيه: تفضل... وهنا بدأت أشعر بنفسى قد ردت إليّ ... خرجت لأجد نور الصباح يتسلل إلى الدنيا ويتسلل فى نفسى هواء الصباح النقى.. فكلما اشتد الظلام .. اقترب النور .

كل هذه الذكريات عبرت أمام عينى وأنا خارج من محطة رمسيس متوجهًا لهذا الفندق المسحور.. إنه بيت أشباح وليس فندقًا على ما يبدو .. مر على هذا الحدث سنوات ، من وقتها زادت معرفتى بالقاهرة شيئًا فشيئًا حتى عرفت الفندق الأخير الفاخر.

حينما وصلت وجدت الفندق القديم لم يتغير فيه شيئًا قيد أنملة ...

سألت صاحب الفندق عن غرفة ، فأجابنى أنه لاتوجد غرف خالية !!!!!

حتى الفندق المسحور القديم الذى لا يصلح لشئ فى الدنيا لم أجد به غرفة!

إذًا ما العمل ؟ وعلى نفس ما تعلمته فى الحياة فعلت أيضا هذا المرة، أن أحاول البحث عن مخرج مهما كلف الأمر .. كنت أشعر بألم غير محتمل فى قدمى وساقى وبدأ الإرهاق يتمكن منى أيما

opelkan.com

تمكن ... و فكرت أن أتوجه إلى الفندق الذى ارتاده كل مرة وأحاول أن أجد غرفة به ... وبالفعل توجهت إلى هناك واستقبلنى حارس المبنى بترحاب شديد .. .واعتليت المصعد إلى الدور ٧ حيث إدارة الفندق .. تقدمت إلى موظف الاستقبال .. كنت أتمنى أن يكون نفس الشخص الذى يستقبلنى كل مرة .. والذى يتكفل بخدمة ممتازة وتوفير سبل الراحة لي .... ولكن للأسف لم يكن هو .. بل موظف آخر ... قبل أن ألقى عليه السلام سبقنى عدة أشخاص تحدثوا فى وقت واحد سائلين عن غرف بالفندق فأجابهم بأنه لا يوجد غرف خالية ، وبالرغم من هذا الضيق .. و هذا العناء والتعب .. وبالرغم من سماعى إجابته بالسلب إلا إننى ظللت واقفًا ... بعد انصرافهم توجهت إليه بالسؤال رغم توقعى إجاباته وأجابنى نفس الجواب ..لا يوجد ...

ولكنى لم أغادر طاولته أبدًا .. ظللت واقفًا أمامه لبرهة ... قلت له إننى نزيل دائم فى هذا الفندق ، وليس لى مكان آخر أعرفه فى القاهرة، وأشعر بتعب شديد ولا أقوى على البحث فى المدينة مترامية الأطراف عن مكان آخر .... نظر لى وراجع أوراقه ثم قال إن هناك أحد الأشخاص حجز غرفة ومرت ساعتين ولم يأت ، ويبدو إنه لن يصل الليلة ومن الممكن أن أحجزها لك إلى حين توفير غرفة أفضل منها فى أقرب وقت .. وكافئته بمبلغ

كبير من المال جزاء موقفه هذا ... أخيرًا سأرتاح وألقى بجسدى على فراش وترتاح قدماى من الوقوف طيلة اليوم فى القطار ...

ماهى إلا لحظات وكان العامل يأخذ حقيبتى وأغراضى إلى الغرفة ٩٠ .حينما دخلتها خيل إلى أننى دخلت فندق على سبيل الخطأ !!!!! إن هذه الغرفة لا تشبه باقى الغرف .. يبدو أن المهندس الذى صمم هذا المبنى الشاهق قد اخطأ فى رسوماته ... ووجد مترين ونصف عرضًا وحوالى ثلاثة أمتار طولاً .... فلم يجدها تصلح لشئ .. ولكن صاحب المبنى يبدو أنه من الطبقة البرجوازية .. فقد أصر أن ينتفع بها ... إنها ضيقة جدًّا ويبدو أنها مصممة لوقت الأزمات هذه ..... ليست مشكلة.. المهم أننى وجدت غرفة فى الفندق المريح ... و يكفى ما يقوم به عمال النظافة من تعقيم الفندق كل يوم والاهتمام براحة النزلاء ..

بعد أن توضأت وصليت ما فاتنى من الأوقات وأنا فى السفر .. أغلقت النور وألقيت بجسدى المنهك إلقاء الزاهد المتعب ، لم أعرف كم ساعة استغرقتها فى النوم المتقطع من شدة الألم ..

استيقظت فى الصباح الباكر وأنهيت كل الأعمال التى آتيت للقاهرة لإنجازها..

عدت للفندق بعد آذان العصر وأجريت إتصالا بمصطفى بك الذى سعد بوصولى للقاهرة وطلب منى التوجه فورًا له .. ولكنى أخبرته أننى احتاج للراحة وأننى سأكون عنده بعد صلاة المغرب ..

ما إن دخلت ديوان المركز ورأيته مثل البدر وحوله النجوم ... وجاء مهرولا وضمنى فى أحضانه ضمًّا شديدًا وصافحنى وصافحته بحفاوة .. فلا يعلم الحب والود ما بينى وما بينه إلا الله..

واستعجب بقية الضباط من هذا الترحيب .. ولسان حالهم يقول .. من هذا الشخص الذى احتفى به جناب المأمور واصطحبه منفردًا إلى حجرته ؟ قبل أن استريح على المقعد أذن المؤذن لصلاة العشاء ..

والعادة التى تعودنا عليها سويًّا هى إننا نصلى معًا فى المسجد، وذهبنا وصلينا.. ورجعنا حجرته ودخل الحارس وجاء يستمع لأوامر المأمور فى محاولة الاحتفاء بى .. فقد احترت ماذا أشرب من كل ما وضع أمامى فى وقت واحد من مشروبات غازية مثلجة وأخرى ساخنة .. والكرم الشديد ضمن صفاته التى يتصف بها ..

تجاذبنا أطراف الحديث .. وعن القضايا الغريبة التى تحدث أمامه وفى دائرته ... و آخرها هذا البلاغ من أب عن ابنته التى هربت من المنزل! ..وأن الفتاة أجرت اتصالا هاتفيًّا فى الساعة السادسة صباحًا أخبرته أن والدها قام بتعذيبها ولذلك هربت ... والأب كاد يجن ويفقد عقله .. وأثناء سرد هذا القصة دخل الحارس ليخبره أن رجلاً يريد أن يدخل وابتسم المأمور قائلاً

لـى: إن هـذا الرجـل هـو والـد الفتـاة ويبـدو أن الليلـة ستكون مليئـة بالأحـداث ..

لـم يكـد المأمـور يقـول للرجـل تفضـل بالجلـوس حتى دخلت سـيدة يبـدو عليهـا أنهـا ذات شـأن عظيـم.. ويبـدو مـن هندامهـا وسـمتها أنها هـانم فعـلاً مـن مثيـلات اللاتـى كـن فـى المسلسـلات .. ولكنهـا هـذه المـرة ليسـت مسلسـلاً بـل حقيقـة.. فمـن هـذه الهـانم ذات الشـأن المهم يـا تـرى؟ وماهـى قصـة الفتـاة الهاربـة؟ ومـاذا سـيحدث فـى تلك الليلـة؟؟؟؟!!!!!!

●●●

obeikan.com

(٤)

يبدو على السيدة أنها مهمة جدًّا ومن علية القوم، وأنها زوجة رجل مهم أيضًا، ويبدو عليها أنها من عائلة أرستقراطية تضرب بجذورها عبر التاريخ... معتزة جدًّا بنفسها.. ترتدى فستانًا أسود به حبات تتلألأ مثل النجوم فى ليلة غاب فيها القمر، ويخيل إليك أن هذا الثوب الفخم قد جيء به خصيصًا من أحد بيوت الأزياء من باريس .. على الرغم من أنها محجبة ومحتشمة والثوب واسع فضفاض... وما زادنى دهشة هو العقد.. ربما يظن البعض أن العقد مصنوع من الذهب وتم شراؤه من محلات لاذوردى.. أو من حجر كريم يتناسب مع الثوب الفخم... لكنه لا هذا ولا ذاك .. العقد عبارة عن رصاصة!!! .. نعم رصاصة... ولكنها أطول قليلاً من حجمها العادى.. ويبدو أن المصانع الحربية قد قامت بصناعة هذا العقد الغريب الفريد من نوعه خصيصًا لها.. ترى لماذا الرصاصة بالذات وكيف..؟

وهذا العجب والدهشة ستزول تمامًا حينما تعرف أن زوجها لواء فى الجيش المصرى، وهو رجل مشهور ومهم جدًّا اسمه س ص نسبة لمدينة صدفا بأسيوط ومن إحدى العائلات العريقة هناك!!! أما اسمها فهو أ هانم ولديها ابنان والاثنان ضابطا شرطة.. أى إنها تتبع الاثنين معًا.. ويبدو أن الجيش والشرطة

اتحدا فى فيلتها الشهيرة بجوار مركز الشرطة المتواجدين فيه حاليًا.

رغم هذا الثراء وهذا الأصل والحسب والنسب الرفيع فإن السيدة متواضعة جدًّا طيبة الخلق والخلقة وحريصة تمامًا على أن تكون محتشمة فى هندامها وردائها وحديثها.

وعلى الرغم من أنها على ما يبدو من عمر ابنيها أنها تخطت الخمسين بسنتين أو أكثر.. فإنها لا يبدو عليها ذلك..فيخيل إليك أنها لم تبلغ الأربعين من عمرها.. وأعتقد أن حياتها فى القصر وهذه الرفاهية التى تربت وعاشت فيها سبب رئيسي فى ذلك، وهى شديدة الاعتزاز بزوجها أحد كبار الجيش، وهى أيضًا لا تقل عنه، على ما يبدو، شهرة ومعرفة بكبار الوزراء، بل تستطيع القول إنها تستطيع أن تدخل مكتب المشير دون أن يشير إليها أحد بالممانعة أو يقف فى طريقها شيء...

وما يبهرك أكثر.. إنها طيبة جدًّا ومهذبة جدًّا. والتواضع هو الصفة البارزة فيها.. إنها لا تشعرك أن هناك فرقًا أو حاجزًا بينك وبينها .. إنها وأنت أشخاص عاديون ولا فرق بين أبيض وأسود إلا بالتقوى..

نظر مصطفى بك إلينا فى شياكة ولباقة وسمت النبلاء .. ربما يذكرك بنبلاء ودوق إنجلترا فى قصص تشارليز ديكنز.

وقام بتعريف كل واحد فينا على الآخر .. وأومأت أنا بالتحية وشرف المعرفة، وكذلك هى ردت التحية فى أدب وتواضع واعتزاز.

ما إن سمعت حديثها عن أسيوط حتى انتبهت.. فعشقى لمحافظة أسيوط يأتى جنبًا بجنب لعشقى للقاهرة، فقد عشت فيها ٤ سنوات فى الجامعة، وجبت شوارعها وتعرفت على قراها ومراكزها.. وفيها أحداث كثيرة أثرت على حياتى حتى الآن..

كانت تتحدث أن ابنيها الضابطين فى أحد مراكز أسيوط .. وسألها مصطفى بك عن حياتهما وحيدين هناك، فأخبرته أنهما بجوار أخوالهما هناك ..... ومعظم الصعيد عبارة عن عائلات مترامية الأطراف فى عدة مراكز ومدن وقرى صعيد مصر.. ولكنها تربطها رغم تفرقة المسافات عادات وتقاليد واحدة...

وأثناء حديثى عن أسيوط وعن العائلات هناك وبعد أن أخبرتها أن عائلتى لها امتداد فى أسيوط ... ولم أكد أن أنهى كلامى حتى بادرتنى عن اسم عائلتى ... وأصابها الذهول والدهشة، حينما سمعت اسم عائلتى!!! نظرت فى دهشة وابتسامة إلى مصطفى بك قائلة: إن الأستاذ قريب لى!! إنها صدفة عجيبة.. وابتسمت هى وابتسمت أنا...

وفى الواقع أننى لست خبيرًا فى علم الأنساب.. ولست من هؤلاء الذين يهتمون بتبادل الزيارات بين أفراد العائلة فى المحافظات المختلفة.. ولا أرهق نفسى مثل كثيرين من أبناء

العائلات والقبائل فى صعيد مصر فى البحث والتنقيب عن أقرباء وفروع وامتداد للعائلة فى شتى أنحاء الجمهورية.. وقضيت الأربع سنوات فى محافظة أسيوط لم أقم بزيارة أحد من العائلة هناك على الإطلاق!!! ولا يهمنى هذا بالمرة .. على الرغم من أن معظمهم يتقلدون مناصب مهمة.. فقد كنت وما زلت لا أعتز إلا بنفسى رغم قلة حيلتى وبساطة عيشى.. إننى أشعر هكذا بالحرية والانطلاق.. وأن أى نجاح أو فشل سأتحمل نتيجته وحدى دون حاجة إلى أحد.. كانت السيدة من لحظة لأخرى تنظر لى نظرة الفراسة.. والعرب مشهورون بالفراسة.. أى معرفة الشخص من ملامح وجهه.. تستطيع أن تقول إن هذا ينتمى لعائلة كذا أو قبيلة فلان فى بلد كذا.

وكأنها تقول بالفعل إنه من عائلة زوجى الضابط الكبير.... هل أسعدنى ذلك.. أن يكون أحد أقربائى أحد الرجال المشهورين والمهمين..؟ أبدًا.. إن هذا لا يعدو وأن يكون مصادفة، وأن العلاقة والمعرفة إذا استمرت ستكون لحسن أخلاق هذه السيدة الفاضلة المحترمة .. فأنا احترمتها وقدرتها قبل معرفتى بها أو بزوجها ... والعلاقة لكى تكون مستمرة وطاهرة ونقية لا بد وأن تكون فى محبة الله وحده .. فلا انساب لها وزن عند الله ولا جاه ولا سلطان .. فكلنا عبيد لله الخالق البارئ المصور ملك الملوك..

درجة الحرارة عالية جدًّا.. والحارس الشخصى لجناب المأمور لا يكاد تمر عشر دقائق إلا ويدخل ليأخذ من أمامنا زجاجات المياة الباردة ليحضر غيرها... ثم القهوة والشاى والمياه الغازية .. ولولا أن هذا الحارس يمتلك جسدًا قويًّا ممشوقًا، ويبدو عليه القوة ما استطاع أن يفعل كل هذا الجهد على مدار الليلة كلها .. أو ربما كان يتعمد تكرار الدخول ليحظى بعدة دقائق فى حجرة المأمور المكيفة المتناقضة مع الجو الملتهب فى الخارج.

●●●

نعود لقصة الرجل وابنته، وما حدانى لروايتها أنها ليست سرًّا يجب ألا أفصح عنه.. ولكن تم عمل محضر بذلك وكثيرًا من العامة عرفها بالتفصيل..

الرجل ضخم البنيان يبدو عليه الترف ويبدو عليه القلق والتوتر، ولكن بصورة ليست هيستيرية كما يجب أن تكون !!!!!!! وبدأ الرجل يقص حكايته قائلاً:

تزوجت من سيدة منذ عشرين عامًا، كانت لأب مصرى وأم سورية ... وما لبثت وسافرت لدولة الكويت.. وكنت أزور القاهرة مرة كل عام لمدة شهر... أنجبت بنتًا وابنا ... أما زوجتى فقد قامت بإنشاء شركة سياحية خاصة بها شهيرة فى القاهرة... ومرت السنون وأنا أكدح فى الغربة وأقوم بتحويل أموالى إلى

زوجتى وأبنائى، ومنذ عدة أشهر قررت ألا أعود للكويت مرة ثانية.. منذ عامين تقريبًا قامت زوجتى برفع دعوى خلع ضدى.. وهنا قاطعه مصطفى بك سائلاً:

هل حصلت على حكم قضائى بذلك؟ أم ما زالت على ذمتك؟ وجاوب الرجل بأنه لا يعرف .... فوجهت أنا سؤالى بحكم عملى: هل تم إعلانك بحكم قضائى بقبول دعوى زوجتك بالخلع منك؟ أجابنى أنه أيضًا لا يعلم!!!! وبدأت نبرته الحزينة تسيطر عليه.... إنه لا يعلم شيئًا عما يحدث فى بيته ... والواقع لم يصبح بيته .. فقد ترك هذا البيت لزوجته وابنته وولده .. وأن قصة الخلع هذه ليست المشكلة الآن!!!!

استطرد قائلاً: منذ عدة أشهر غابت ابنتى لمدة خمسة أيام ثم عادت .. وقالت إنها كانت فى الإسكندرية مع صديقتها، ثم غيّرت أقوالها وقالت إنها كانت فى شرم الشيخ!! وكانت تحمل عملات خليجية!! مر الموضوع ولم يحدث شيء.....!!!!!

لكن منذ خمسة عشر يومًا غابت وتركت هاتفها فى المنزل!!! ولا أستطيع أن أحصى عدد المكالمات التى جاءتنى على هاتفها من أصدقائها وصديقاتها... بعض الشباب فى إحدى المكالمات أخبرنى أن ابنتى تزوجت قبل ذلك!!!!! والبعض قال لى إنها سيئة السمعة وأنها دائمًا مع صديقات السوء .... لم أحتمل تلك المكالمات وهذا الهراء الذى جعلنى أجن!!!

عادت إلى المنزل بعد ذلك وقد قامت بطلاء شعرها باللون الأصفر، حينما توقعت أننى أخبرت الشرطة وجارى البحث عنها.. واستلمتها هنا من ديوان المركز... لكنى عندما وصلت للمنزل وهى معى، وما إن دخلت من الباب حتى أحضرت مقصًا وقصصت شعرها حتى أصبحت مثل رأس الولد .... وقمت بربطها بسلسلة فى قدمها وضربتها..

وهنا قاطعه المأمور قائلا: إن هذا الأسلوب ليس الأمثل فى التعامل مع فتاة فى سن العشرين.. كان عليك أن تحتويها وتجرب معها طرقًا أخرى لتهذيبها... وهنا همّ الرجل أن يرد ولكنه رجع .. فقد وقفت الكلمات فى فمه وتصبب عرقًا وأمسك بسيجارة وأشعلها بيدين مرتعشتين، وأخرج دخانًا كثيفًا وأطرق قليلاً ناظرًا فى الأرض..

ونظرنا نحن ثلاثتنا مصطفى بك والسيدة المبجلة وأنا إلى بعضنا البعض علنا نفهم أو نستنتج شيئًا من هذا كله.. إن الموضوع بدا وكأنه سيدخل فى إطار آخر..

قطع الرجل الصمت وأزال عنا عناء توقع ما حدث قائلاً:

ما جعلنى أقوم بضربها هو ما أخبرتنى به!!!! ثم وقف عن الكلام مرة أخرى....

وكنا نحن نقدر موقفه كأب فقد السيطرة على بيته وأبنائه لسبب يرجع إليه هو فى المقام الأول.. فهو الذى تركهم دون تربية وتعهد.. وفى الواقع ليست كل أسرة بعد عنها عائلها .. قد فسد حالها.. هناك الأم التى ربت أطهر الأبناء وأعظمهم خلقًا وفى غياب الأب.. إذًا ليس غياب الأب وحده هو السبب.. ولكنه غياب زوجته غير المهتمة بتربية أبنائها وانغماسها فى شركتها وأموال ها....

شعرنا أن الرجل به غصة فى حلقه، وأن هناك حاجزا يقف بين فكيه يمنع الكلمات من الخروج .. ولكنه بعد هنيهة قال:

لقد أخبرتنى أن أخاها كان يتسلل إلى غرفتها ليلاً ويمارس معها ما حرم الله .. وأنها لم تمانعه!!!!!!!!

الخبر هبط كالصاعقة ولم نجد كلمات نرد بها عليه ... وساد الصمت حجرة المأمور مرة أخرى ... وأخرج مصطفى بك سيجارة وأشعلها.. أما السيدة الفاضلة فالتزمت الصمت قاطبة الجبين منذ أن أقلعت عن التدخين من عدة أشهر لم أذكر أننى اشتهيتها إلا هذه اللحظة... أردت أن ابتلع الدخان ورأسى تدور قليلا كى تعتدل بعض الشيء .. إنها ليست فى مكانها الآن.....

وبما أننا قد اعتدنا على المشاكل فقد أراد ثلاثتنا أن يدلى كل واحد منا بدلوه لحل الموضوع.. خاصة وأن البنت قد هربت مرة ثالثة من يومين والأب يبحث عنها.

وكان علينا أن نطمئن الأب وأن نفكر له فى مخرج ... حقيقة أن هذا ليس فى اختصاص أو عمل أحد فينا فجناب المأمور قد حرر محضره الرسمى وعمل ما يمليه عليه ضميره المهنى... والسيدة الفاضلة ضيف مثلى عند المأمور.. ولكن مصطفى بك تعدى مرحلة إتقان العمل إلى مرحلة التفانى فيه، وأن يكون إيجاد الحل وراحة الناس عنده أولى من راحته هو وأسرته.. والسيدة الفاضلة تطوعت لحل هذه المشكلة أيضًا..

تبقى الخيط الجنائى الذى يتعين على المأمور أن يبدأ منه.. وكان هذا الخيط هو آخر مكالمة من الفتاة تلقاها على هاتفه منها.. كانت الساعة السادسة صباحًا... وأخبرته أنها لن ترجع لمنزلها مرة أخرى وطلب هو منها أن تتوجه إلى مكتبه وتنتظره وأن من فى المركز سيهتمون بها حتى يذهب هو .. ولكنها قطعت الاتصال معه..

ومنذ هذه اللحظة وهو يجرى اتصالاً بهذا الرقم ولا احد يرد .... و تطوعت السيدة الفاضلة لحل هذه المشكلة ، وطلبت رقم الهاتف وانها ستتصل هى بنفسها وتخبرها انها زوجة المأمور وانها سمعت بقصتها وستقوم برعايتها وحمايتها ... فما كان يهم الاب ويهمنا هو عودتها .. ولكن الأب كان متأثرًا جدًّا بما أخبرته به ابنته وما بينها وبين أخيها من علاقة محرمة .. وأخذنا ثلاثتنا يطمئن فى الرجل المسكين وقلنا له إنها قالت له ذلك غضبًا منها

لإهانتها وضربها وانتقامًا منه .... إننا لم نكن نعلم تمامًا عما إذا كانت توقعاتنا صحيحة أم لا....؟

أجرت السيدة عدة اتصالات دون جدوى .. فلا أحد يرد ... وفجأه ردت الفتاة عليها .. والسيدة قد قامت بدورها على أكمل وجه .. ونجحت فى إقناع الفتاة أن تأتى لمكتب المأمور لمقابلتها فى الصباح هناك .. ووافقت البنت..

وبدأ الأب يسترد أنفاسه ويستعيد توازنه..... وخرج بعد أن أخبره المأمور أن يأتى فى الصباح ويكون على مقربة من ديوان المركز حتى إذا ما تطلب الامر استدعائه .. وهنا وقف الرجل ناظرًا إلينا وقائلاً فى حزم: لا بد وأن يتم توقيع الكشف الطبى على ابنتى لكى أعرف إذا كانت عذراء أم لا وفى كل الأحوال....

وقلنا له إن هذا من حقه كأب ولكن ليدع هذا الموضوع للسيدة الفاضلة..

والسيدة درست الفلسفة وعلم النفس وقامت بكتابة بحث ميدانى عن الإجهاض وأخبرتنا بعدة قصص ومغامرات فى ذلك.. إنها على قدر كبير من العلم والثقافة والتواضع أيضًا... ونهضت هى وقامت بمصافحتى بحرارة معبرة بسعادتها لمقابلة رجل من عائلة زوجها التى تكن لها تقديرًا واحترامًا واعتزازًا كبيرًا، وأننى أصبحت عضوًا جديدًا فى عائلتها، وما كان لى أنا

إلا أن أعبر عن امتنانى العميق لهذه المصادفة السعيدة وصافحتها كما يصافح النبلاء أصحاب الذوق الرفيع إحدى دوقات إمارة ويلز فى بريطانيا .... وعلى الرغم من أننى لست نبيلاً ولا دوقًا ولا يحزنون .. وأنى أغلب خلق الله قاطبة، إلا أننى وجدت نفسى أفعل ذلك فى هدوء وابتسام ..

وبعد أن خرجت من الحجرة .. وقفت أنا وطلبت من جناب المأمور أن يتركنى أغادر.. ولكنه طلب منى أن أكون هنا فى الصباح الباكر .. واعتذرت.. لكنه ألح وصمم على ذلك .... وأراد أن أكون وقت وجود الفتاة فى المكتب.. وأن هذه المشكلة ستساهم فيها هو والسيدة والعبد لله ... وأن هذه حالة إنسانية خارجة عن نطاق الرسميات ... ولنفعلها لوجه الله.

وأخبرته أنى سأفعل.. ووقف وصافحنى وأخذنى فى أحضانه وربت على كتفى وخرج مودعًا لى حتى باب ديوان المركز الأمامى، رغم طلبى منه التفضل والرجوع إلى حجرته.. فإنه رفض ... وكان باقى ضباط المركز يقفون انتباه للمأمور .. والانتباه لشأنى أنا .. علهم يعرفون من هذا الضيف الذى يحرص المأمور على أن يودعه بهذه الحفاوة !!!!!!

●●●

(٥)

خرجت من ديوان المركز أتسكع فى شوارع القاهرة وأتنسم هواء الليل العليل.. كانت الساعة شارفت الواحدة بعد منتصف الليل.. وكان الهواء نظيفًا وبدأت حرارة الجو تنخفض رويدًا رويدًا.. وكنت أحتاج إلى هذا.. فما جرى من أحداث، وما سمعته من حياة هذا الأب البائس وابنته جعلنى أفكر كثيرًا وأنا أمشى وحدى كما أحب دائمًا فى ليل العاصمة...

ودارت فى رأسى أسئلة كثيرة .. هل ستأتى الفتاة فى الصباح فعلاً؟

وهل ستوافق على كشف عذريتها وكيف وأين سيحدث هذا؟

حينما اقتربت من الفندق وجدت نفسى أشعر بالجوع.. وكان هناك مطعم فخم بجوار الفندق .. وطالما أن الليلة كلها تبدو أرستقراطية فليكن العشاء أيضًا كذلك.. على الرغم من أننى لا أهتم بهذا التميز فى الأطعمة فإننى قد وجدت نفسى أدلف إلى هذا المطعم الذى يقدم مأكولات شهية من الدجاج المشوى والشاورما والكبدة الاسكندرانى، ولكن بقطع الزبد اللذيذة التى تشعرك أن فتاة المراعى قد جهزتها خصيصًا لرواد هذا المطعم الفخم ... وكنت الزبون الوحيد فى هذه الساعة المتأخرة .. ولذلك كان الاهتمام بمجيء زائر ما بعد منتصف الليل أكثر

اهتمامًا وأوفر خدمة.. هل أردت أن أكافئ نفسى؟ إننى لم أفعل شيئًا أستحق عليه المكافأة...! إذًا ما هو سبب الراحة النفسية والسكينة التى تسللت إلى صدرى وأنفاسى ووجدانى؟ فى الحقيقة أن هذا شعور طبيعي فى هذه اللحظة بالذات.. إن هذا الشعور بالراحة النفسية والاطمئنان دائمًا وأبدًا يلازمنى عندما أكون مع مصطفى بك المأمور .. هذا الرجل يأخذنى إلى زمن بعيد .. يشعرنى بأنى أجلس مع أحد الصحابة ... مع أحد العظماء القليلين الذين عرفهم العالم عبر سنين طويلة وعرفتهم البشرية والإنسانية .. هذا النور الذى يخرج من وجهه والابتسامة التى لا تفارقه .. هذا التفانى فى العمل، إن كل دقيقة تمر فى حياته تحمل جديدًا ومثيرًا، وربما هذا من ضمن تمسك وتشبث الشباب والصحة به.. حينما كان مأمورًا فى ديوان مركز مدينتى فى الصعيد كنا نتقابل دائمًا أبدًا... كنت أنهى عملى بالمحكمة ثم أتوجه مباشرة إليه.. أتوضأ فى استراحة مكتبه ثم نتوجه لصلاة الظهر فى المسجد ثم نعود لمكتبه مرة أخرى ونظل نتجاذب أطراف الحديث حتى أذان العصر!!!! وكان ذلك يحدث كثيرًا ... كانت معظم أحاديثنا عن تفسير القرآن الكريم.. وعن العلاقات الإنسانية والأخلاق وإتقان العمل ..... وهو يحفظ القرآن كله تجويدًا وترتيلاً، وحينما تستمع إليه وهو ينطق الآيات الكريمة تشعر أنه عالم كبير فى اللغة العربية وتجويد القرآن....

وهـو يمتلـك عينـين حادتـين متسـعتين.. تشـعر أنهمـا أقـوى بكثيـر مـن عينـى النسـر المرسـومة علـى البوريـه الـذى يضعـه علـى رأسـه... إنـه شـديد الـذكاء بصـورة تجعلـه مثـالاً ونموذجًـا لضابـط الشـرطة القـوى الفطـن الـذى لا يغلبـه أمـر أو موقـف مهمـا كان..

أخيـرًا رجعـت إلـى الفنـدق ودخلـت غرفتـى وكنـت مجهـدًا جـدًّا ..وشـعرت بألـم فـى قدمـى يتسـلل إلـيّ مـرة أخرى..أطفـأت المصبـاح وكعادتى لا أسـتطيع النوم إلا كذلك .. في الظلام .. وألقيت بجسـدى المتعـب علـى الفـراش ... ولكـن وعلـى الرغـم مـن تعبـى هـذا فقـد هـرب منـى النـوم.. اسـتلقيت علـى ظهـرى ووضعـت يـدى الاثنتـين أسـفل رأسـى وأخـذت فـى تفكيـر عميـق.....

●●●

كان وقـت الضحـى... اسـتيقظت وتوجهـت مباشـرة لأعـاود المشـاركة فـى محاولـة رجـوع الفتـاة لأبيهـا...مـا إن رآنـى حـارس مكتـب المأمـور وراح يهـرول فاتحًـا البـاب لـى .. كانـت السـيدة الفاضلـة تجلـس علـى أحـد المقعديـن علـى يمـين مكتـب المأمـور، وفـى مواجهـة البـاب، وكانـت تجلـس فـى المقعـد الآخـر الفتـاة !!!!!!! توجهـت وصافحـت مصطفـى بـك الـذى أخذنـى فـى أحضانـه للمـرة الثانيـة بحفـاوة وكأنـه لـم يرنـى منـذ سـنين...!!

كانت السيدة تتحدث فى هاتفها وحينما رأتنى وقفت وصافحتنى ثم غادرت مقعدها وطلبت منى أن أجلس مكانها .. ولم تعطنى فرصة كى أطلب منها أن تجلس مكانها ... وجلست هى على أحد مقاعد الأنتريه الوثير فى مكتب المأمور، حيث كانت فى مواجهتها الناحية الأخرى والدة الفتاة ...!!

نظرت إلىّ الفتاة التى تجلس على المقعد فى مواجهتى ... الفتاة ذات ملامح هادئة، تتحرى ألا تقع عيناها على أحد فى الحجرة ..... كان شعرها مصبوغًا باللون الأصفر وقصيرًا جدًّا حتى يخيل إليك فعلاً إنها رأس ولد وليس بنتًا ...

كانت نظراتها حائرة.. ويداها تعبثان مع عينيها كعبث طفلة صغيرة على وجهها .. أما الأم فيبدو عليها بالفعل أن والدتها من الشام.. فهذا الأنف الجميل الذى يعجز فى رسمه الإسبانى بكاسو، وهذه الحمرة على وجهها كحمرة النبيذ المعتق منذ زمن بعيد بجنوب فرنسا، ولكن أحدًا لم يرتشفه حتى الآن! والعينان اللامعتان التى أرهقهما السهد والحرمان.. تنظران فى الأرض ولا تتحركان إلا قليلاً .. ولكن يبدو عليها أيضًا أنها قاسية قوية .. فالمكر ورباطة الجأش يبدوان على ملامحها أيضًا ... وحجابها أعطاها جمالاً فوق جمالها حتى تستطيع أن تقول وأنت مطمئن أنها أجمل من ابنتها بكثير.. وبكثير جدًّا ....كان علىّ أن أستنتج ما

فاتنى من أحداث.. وكان يبدو على السيدة الفاضلة أنها نجحت حتى الآن فى خطتها إلى حد كبير .. وقطعت شوطًا بعيدًا فى تحقيق الهدف من رجوع الفتاة لأبيها..

أما مصطفى بك فكان يهمس لى من وقت لآخر عما حدث فى الدقائق قبل مجيئى .. وكأنه لاحظ أن الفتاة لن تسمع همسنا على الرغم من أن المقعدين الجالسين عليهما هى وأنا على نفس المسافة منه... ولكنه لاحظ بكل تأكيد مثلى أن الفتاة تحمل نظرات تائهة طفولية ..

قبل أن تنتهى السيدة الفاضلة من حديثها الذى يبدو مهمًّا على هاتفها حان وقت آذان الظهر.. فنظر لى مصطفى بك، وسألنى الذهاب إلى المسجد للصلاة تاركين النسوة وحدهن.

وبعد أدائنا للصلاة رجعنا فوجدنا الحجرة خاوية على عروشها، وقبل أن نسأل بعضنا ما بال النسوة وأين ذهبن حتى لاحظ مصطفى بك أن هناك ورقة صغيرة موضوعة أمام مكتبه، لا يلاحظها إلا هو إذا جلس على مقعده ... وابتسم ومسك بها وقرأها بصوت عال .. وكانت بطبيعة الحال من السيدة الفاضلة:

«لقد ذهبنا للمستشفى وسنعود بعد قليل».. إذًا فقد شرعت فى تنفيذ الشق الثانى من خطتها لاستكمال حل هذه المشكلة ... إنها ذهبت لتوقيع الكشف الطبى على عذرية الفتاة من عدمه!!!!

كنا نعلم مصطفى بك وأنا أن هذه لحظة عصيبة على الفتاة إذا كانت بريئة وكارثة إذا ثبت خلاف ذلك..وأشفقنا على الجميع .. البنت وأمها وعلى السيدة الفاضلة «أ» هانم التى ليس لها فى المشكلة ناقة ولا جمل، ولكنها مروءة العرب ونجدة الملهوف.. فالأب الذى يقبع فى مقربة من ديوان المركز ينتظر نتيجة الأحداث ..

أخيرًا وبعد أن تناولنا المشروبات المثلجة والدافئة عدة مرات .. دخلت السيدة الفاضلة وحدها ... أعطيناها دقيقة كى تستريح. يبدو عليها الإرهاق الذهنى والعصبى كنا ننظر إليها بشغف منتظرين أن نعرف ماذا حدث فى المستشفى!!!

نظر إليها مصطفى بك سائلاً: ماذا حدث؟

أجابت السيدة الفاضلة:

لقد توجهنا للمستشفى .. والمستشفى حكومية مشهورة فى القاهرة .. ومدير المستشفى على معرفة بى تمامًا وصديقة لزوجته التى وجدتها أيضا هناك... ثم تحدثت مع الطبيب وأخبرته فى عجالة عن القصة.. وقد أبدى الطبيب عجبه من المجهود الذى تبذله مع هذه الحالة، وكيف خرجت من فيلتها الفخمة خصيصًا لحل هذه المشكلة...؟

ثم أخذت تكمل الحديث: إن الوقت الذى دخلت الفتاة مع والدتها حجرة الطبيب كان عصيبًا ... وحاولت الأم وابنتها العدول عن هذه الفكرة لولا أننى صممت على ذلك .. وأخيرًا خرج الطبيب وقال لى إن البنت عذراء .... ولكن يبدو على جسدها علامات الرذيلة!!!! وبادر جناب المأمور سائلاً: ماذا يعنى هذا...؟ وأردت أنا تولى الإجابة بدلاً منها كى أمنع إحراجها... ووصفت لمصطفى بك أن هذا الكلام يعنى أن الفتاة كانت تربطها علاقات آثمة فعلاً مع شباب ومارست كل شيء.. وكادت أن تفقد عذريتها. الأمر ازداد تعقيدًا.... ماذا نقول للأب بعد قدومه بعد قليل؟ هل نقص عليه الحقيقة كاملة وبالتفصيل أم أننا نتحرى ألا نقول له كلامًا يزيد من حيرته وألمه وشكه فى ابنته؟

دخل والد الفتاة.. يبدو عليه القلق والتلهف لمعرفة الحقيقة.... لم تجعله السيدة ينتظر كثيرًا.. وقالت له:

- إن ابنتك سليمة تمامًا

ورد عليها سائلاً:

- كيف؟

وكررت هى إجابتها فى نبرة تأكيد واستغراب من عدم فهمه المباشر لكلامها الواضح.. ولكن الأب لم يصدق السيدة الفاضلة «أ»

هـانم، وقـال إنـه لا بـد مـن أن يوقـع عليهـا الكشـف الطبـى لـدى الطـب الشـرعى ..وأخبرنـاه أن هـذا مـن حقـه طبعًـا... ولكـن فعـل مثـل هـذا مـع ابنتـه التـى ثبـت للطبيـب أنهـا عـذراء ربمـا يتسـبب لهـا فـى نكسـة صحيـة وعصبيـة .. وعليـه أن يحـاول أن يحتـوى ابنتـه وينقـذ مـا يمكـن إنقـاذه مـن بيتـه المتهـدم.. ورحـت أنـا أتحـدث إليـه بنبـرة يملؤهـا النصـح والإرشـاد وأن عليـه أن يصـدق السـيدة الفاضلـة التـى لا يمكـن أن تكـذب وليـس لهـا مصلحـة فـى ذلـك، ومـا زاد اطمئنـان الرجـل أن السـيدة أخبرتـه أن مـا قالتـه الفتـاة عـن العلاقـة المحرمـة بينهـا وبـين أخيهـا ليسـت صحيحـة، وأنهـا قالـت لـه ذلـك انتقامًـا منهـا ممـا حـدث منـه مـن ضـرب وإهانـة تمامًـا مثلمـا قلـت لـه أنـا..لكـن السـيدة الفاضلـة كانـت قلقـة مـن هـذه النقطـة، لأن نظـرات الأم أثنـاء حديـث البنـت بذلـك كانـت يبـدو عليهـا تكذيـب ابنتهـا، وأن هنـاك أشـياء كثيـرة حدثـت..وبعـد أن قـام كل واحـد فينـا بنصحـه بـأن يهتـم بأسـرته أكثـر مـن ذلـك، وأخبرتـه السـيدة أن زوجتـه لا تمانـع مـن رجوعهـا لـه.. إلا أنـه رفـض ذلـك وبشـكل قاطـع ولسـبب لـم نعرفـه بالتحديـد!

خـرج الرجـل.. وأخذنـا ثلاثتنـا نتحـدث فـى هـذه القصـة العجيبـة... كانـت السـيدة الفاضلـة، وهـى تجلـس فـى ثقـة وتواضـع العظمـاء وهـى تتحـدث تذكرنـى بالفيلسـوفة الفرنسـية سـيمون دى بوفـوار. Simone de Beauvoir. نفـس العينـين الباسـمتين.. والحاجبـين المرفوعـين فـى شـموخ

وعظمة الأميرات، وكل من حولها يحترمها ويجلها إجلالاً كبيرًا كحب وإجلال الشعب السويدى بملكتهم العظيمة ديزيريه.. وحياتها المليئة بالعطاء والبذل والكرم...

ثم وقفت سائلة الرحيل... وقامت بمصافحة كل منا، وتقدّم المأمور لشكرها على هذا التكرم بالمجهود والدور الذى لعبته فى رجوع البنت إلى منزلها ... وصافحتها وودعتها بحفاوة .. وكأننا نعرف بعضنا البعض منذ زمن بعيد.

أما أنا فقد أصر مصطفى بك أن أكمل اليوم معه .. وأعطى أوامره للحرس بأن يأتوا بأطيب الطعام.. وجلسنا وأكلنا وشربنا وتحدثنا ... وقضيت يومًا رائعًا مع رجل من أنبل الرجال.

عدت للفندق فى المساء كى أجهز حقيبتى للعودة للجنوب مرة أخرى .. فقد أتممت عملى والمهمة التى جئت من أجلها .... وقضيت يوم وليلة مع مصطفى بك .. مع الرجل الذى أحبه كثيرًا .. وأحترمه وأجله أكثر... وسأظل أتردد عليه أينما انتقل أو ذهب إلى أى مكان ... فمعه أقضى أجمل الأوقات ...

وأغرب الرحلات ...

تمت

يوليو ٢٠١٢

obeikan.com

obeikan.com

أسيوط ...البلد العتيق

ما زلت أذكر ذلك اليوم، أول يوم أخرج فيه من قريتى وتطأ قدماي أرض المدينة.. وكانت أسيوط ... حيث جامعتها التى قبلتنى طالبًا فى إحدى كلياتها العريقة .. كلية الحقوق.

ولأنها أول مرة أخرج فيها من قريتى فقد آثرت أن يكون معى أحد ممن لهم خبرة بها، وسبق لهم العيش فيها يساعدنى فى الحصول على مسكن، وكان رجلاً أزهريًّا تخرج في إحدى كليات جامعة الأزهر، وهو أيضًا من أقاربى.

لا أستطيع أن أصف فرحتى وسعادتى .. إن روحى المحبوسة والقابعة فى قرية بحضن الجبل التى تملؤها العصبية والجهل آن لها أن تتحرر وتنطلق، وأى انطلاق.. إنها الجامعة، وإنها دراسة القانون التى كانت تدعم ما كنت أحلم به دائمًا، إن فكرة حقوق الإنسان ومواجهة الظلم والإجحاف الذى يتعرض له البشر فى شتى بقاع الأرض جل ما كنت أقرأ كثيرًا فيه وعنه .. بل وصل الحد أننى كنت أخرج من مدرج الكلية وأمشى وحيدًا داخل الجامعة مستغرقًا فى التفكير فى هذه المشكلات الإنسانية !.. وكانت صورة المهاتما غاندى لا تغادر مخيلتى أبدًا، بل كنت أستشعر أننى المهاتما غاندى نفسه!!

وصلت أنا ورفيقى إلى أسيوط، وتوجه بى إلى (إسرائيل) وإسرائيل هذا هو اسم أشهر سمسار لمساكن الطلبة فى أسيوط حينذاك .. ويعمل مكوجى.. وهو طاعن فى السن.. تشعر وأنت تتحدث إليه أنك ستفقده فور انتهاء حديثك معه.. فلا بد أن ملك الموت يقف بجواره منذ لحظات.. ولكنه ينتظر أن يدع المكواه الثقيلة الموجودة فى قبضة يده وقدمه!

وبعد تشاور طويل مع رفيقى عن الأماكن والمناطق التى يوجد بها مساكن للطلاب الوافدين، والتى تشكل أحد أهم الموارد الاقتصادية لمدينة أسيوط لكثرة الطلاب المغتربين فى الجامعة، انتهى النقاش والاتفاق على أحد المساكن فى منطقة الزهراء بجوار الجامعة مباشرة، لا يفصلنى عنها سوى سكة القطار الحديدية ..

وذهبنا وقابلنا مالك العقار، وكانت صدمتى الأولى.. أن الغرفة لا تبدو إطلاقًا مناسبة، ولا هى التى كانت مرسومة فى مخيلتى عن ساكنى الحضر، وانزعجت واعترضت، ولكن رفيقى قال لى إنه بإمكانى تغييرها فى أى وقت أجد فيه أفضل منها، وإنه شخصيًّا كان يفعل ذلك فى كل عام دراسى مرات عدة، وافقت على مضض، وتم حجز غرفة كاملة لى وحدى، وكان ذلك من باب الترف من وجهة نظر رفيقى وعم إسرائيل السمسار،

فالغرفة يشترك فيها اثنان أو ثلاثة، أما أنا فقد فضلت على أن أكون منفردًا.. وهذا الشعور بالاستقلالية ما زال يراودنى حتى هذه اللحظات.. فما أفكر فيه لا يشعر به إلا أنا، وما أحلم أن أحققه لا يهم أحد سواى.. فلا بد أن أكون منفردًا..

ثم ذهبنا إلى العتبة الزرقاء لشراء العفش.. وعفش سكن الطلاب عبارة عن سرير حديد ومنضدة ومقعد .. وبعض الأوانى البسيطة التى لم أستخدمها إلا قليلاً! ثم أحضر رفيقى عربة يجرها حصان!! وتم شحن العفش على العربة .. ونظر رفيقى لى وقال: اركب مع سائق العربة، وهو يعرف الطريق جيدًا وأنا سوف ألحق بكما..

هذه الفكرة لم ترق لى إطلاقًا، ودب فى نفسى الرعب، فأنا ما زلت لا أعرف شيئًا فى المدينة الكبيرة وما زلت غريبًا.. وماذا أفعل إن ضللت الطريق إلى السكن؟ وكان ذلك فى نهاية عام ١٩٩٥ أى إننى لو ضللته لا يوجد أى وسيلة تجعلنا نتقابل ثانية، حيث لا محمول في ذلك الوقت فى المدينة التى بدت لى من أول وهلة أنها واسعة مترامية الأطراف، لذلك بادرته قائلاً:

- لا .. لن أذهب وحدى .. ربما هذا الرجل لا يعرف العنوان الصحيح ولا أنا أعرفه كذلك ..

فضحك رفيقى قائلاً:

- يلزمك يومًا واحدًا وستعرف كل شبر فى أسيوط ..

وركبت على العربة مع سائقها، أما رفيقى فمشى وراءنا وعلى مقربة منا، وكان يرتدى زيه الأزهرى؛ الجبة والقفطان؛ مهرولاً ورائى.

لا أستطيع أن أصف هذا الشعور الذى انتابنى وأنا جالس فوق أغراضى على هذه العربة كأحد اللاجئين أو النازحين من بلد لآخر.. فأنا طالب الحقوق الذى سيدرس القانون بعد أيام قلائل، ويتصفح عما قليل آراء فقهاء القانون .. ويقرأ لغاندى حتى تقمص شخصيته تمامًا، وجزمت أننى حفيد غاندى فى النضال ضد العنصرية .. والدعوة للسلام.. ها هو ذا يركب عربة بدائية يجرها حصان؟!

إن هذا الموقف سبّب لى ضيقًا وحرجًا شديدين والناس تنظر لى .. وشعرت أن الناس ستضربنى بالقباقيب مثل شجرة الدر، حينما يعلمون أن من يعتلى هذه العربة البدائية يحلم أن يكون يومًا ما مناضلاً!!

لكن احدا لم يكن ناظرا لى على الإطلاق، فلا يبدو شيء غريب أن يستقل أحد عربة يجرها حصان محملة بأغراض..

ولكن كان هذا توهمى أنا وحدى فى هذا الوقت بالتأكيد، ولكنها لا تعدو أن تكون حلمًا من أحلام الشباب وهواجسه فى العالم الجديد..

وصلنا وقمت بوضع السرير والمنضدة والمقعد فى غرفتى وأحكمت إغلاقها ورجعت إلى قريتى مرة ثانية للعودة بعد أيام مع بدء الدراسة، وقد أخبرنى رفيقى أن لنا أقرباء من العائلة فى أسيوط وأنهم أصحاب نفوذ ويتقلدون مناصب مهمة ومن الممكن أن نتعرف عليهم، لكننى رفضت رفضًا نهائيًّا لهذه الفكرة.. وأخبرت رفيقى أننى لن أتعرف على أي من العائلة فى أسيوط مهما حدث... وتعجب هو كثيرًا منى ومن ضيقى لهذه الفكرة.. لكننى نفذتها حتى تخرجت من جامعة أسيوط.. وحتى الآن!

كانت الغرفة هى واحدة من أربع غرف؛ الحجرة المجاورة لى هى حجرة غير مسكونة ويسميها رفقائي فى السكن (الحجرة السرية) !! .. وهم أطلقوا عليها هذا الاسم؛ لأن الطالب الذى يقوم بحجزها كل عام لا أحد يراه إلا خيالاً يشبه الطيف!!!!

فهو لا يأتى إلا نادرًا.. وإذا جاء لا أحد يعلم متى دخل السكن ومتى خرج!! فقد تمر عدة أشهر ولا تراه، وإذا رأيته لا تستطيع أن تتمكن من مشاهدة ملامحه كاملة ولا تستطيع أن تتحدث معه إطلاقًا!! ثم أنه يبدو عليه أنه متقدم فى السن عنا كثيرًا..

وكثرت الروايات والتكهنات.. البعض قال إن هذا الرجل هو د. جيكل ومستر هايد! والبعض قال إنه جن! والبعض الآخر قال إنه يعمل فى جهة أمنية سرية ولا يريد ان يتعرف عليه احد !!!

اما الحجرتان الأخيرتان فكان يسكن فيهما خمسة طلاب من محافظة المنيا ..

ولم ار اناسا متشاكسين و لا يحبون بعضهم بعضا مثل اهل اسيوط واهل المنيا.. هذا ما استنتجته.. وكان هؤلاء الطلاب تتملكهم الدهشة من شدة حبى لمدينة أسيوط! ويقولون إنها بلد غالية المعيشة وأهلها عصبيون جدًّا وغير ودودين.. ودائمًا ما كان يحدث شجار بين طلاب محافظة المنيا وبين أهالى أسيوط!

وفى الواقع أن أهل أسيوط لم يكونوا بهذه العدوانية التى كان يظنها المنياوية.. إن أسيوط بلد تشعر أنها بلاد عتيقة، أهلها ينحدرون من أصول عريقة ونسب معروف، وهم فى قمة الاعتزاز بهذه العراقة وهذه الأنساب العربية.

كان بقية الطلاب ينظرون لى نظرة على أساس أننى مدلل وأعيش فى ترف! فكونى أعيش فى غرفة وحدى فهذا قمة الترف.. وكان ما يبهرهم أكثر هو جهاز الراديو الذى جلبته معى!! .. فقد كان هو المادة الإعلامية والترفيهية الوحيدة حينذاك!

كان واحد منهم يدعى رضا.. ورضا هذا شخصية مرحة .. من مركز العدوة .. كان يأتى كل ليلة لكى يستمتع بالهواء المنعش المنبعث من المروحة النقال الموجودة ضمن مقتنياتى فى حجرتى، وكانت هذه المروحة فى وجهة نظرهم دليل كافٍ على أننى فعلاً مدلل.. وأن أهلى مبذرون وإخوان الشياطين!!

وكنت فى شدة الاستغراب من تفكيرهم هذا.. فما أنا فيه أقل بكثير جدًّا على ما هو عليه منزلى فى القرية!! بل إن أهلى كانوا مشفقين جدًّا على معيشتى فى الغربة.

وكان رضا يأتى دائمًا إلى حجرتى التى كانت بالنسبة له مقهى.. فلا يكاد يجلس حتى أقوم بتجهيز الشاى والتحية بالسجائر – وهي الخطيئة الكبرى التي تعلمتها في أيام الدراسة للأسف – التى يدمنها هو أيما إدمان!!

وكان فى مقابل هذا الاستقبال والترحاب يعلم جيدًا ما أحبه وأنتظره منه .. وما أحبه هو هذه القصص التى يرويها علي، والتي تبدو حقيقية أحيانًا وأحيانًا كثيرة أظنها لا تعدو أن تكون خرافات وأساطير ..

فلقد كنت شغوفًا لمعرفة كل شيء عن هذه البلاد الجديدة، وعن العادات والتقاليد واللهجات وأحوال الناس الاجتماعية عندهم ..

وكان هو يجيد سرد الغريب والعجيب من القصص والحكايات .. وكثيرًا ما كان يحكى لى عن النداهة التى جزم كثير من أهالى بلدته أنهم رأوها رؤى العين أو سمعوا صوتها .. وعن الكائن الضخم الذى يظهر فى النيل ليلاً عند اكتمال القمر!!

كانت أسيوط هى الدنيا الجديدة التى كنت أحلم بها فى هذه السن من مقتبل حياتى .. فروحى ونفسى كانت حبيسة فى قريتى النائية حتى غادرتها للجامعة.. فعشقتها وعشقت أهلها ولهجتهم المميزة .. وشوارعها وحواريها وهواءها .. كل شيء ..

لكن ما أتعبنى فى أيامى الأولى من غربتى هو قلة الخبرة فى الحياة اليومية وحسن التصرف .. كنت أمتلك المال، ولكنى لا أعرف الأماكن والمطاعم التى تناسبني.. فكنت لا أهتم كثيرًا بالطعام .. وأقبلت على التدخين بشراهة!!

الذى أجبرنى بعد ذلك لاقتحام المدينة بعد أيام قليلة من بداية العام الدراسى هو أننى طلبت من أحد الزملاء أن يدلنى على مكان المكتبة التى تبيع كتب الكلية وهى خارج الجامعة فى مكان ما فى المدينة.. ولم تكن بينى وبينه قرابة ولا معرفة سوى أننا من بلد واحدة .. لكننى ظننت أنه سيقوم معى بالواجب.. وحينما طلبت منه ذلك أومأ برأسه وقال لى موافق ولكن بشرط!! فقلت له وما هو؟ قال:

أود أن تقوم بتقديم وجبة فراخ مشوى لى!!!

واندهشت لهذا كثيرًا بل كان صدمة!

قلت له إننى حديث عهد فى المدينة ولا أعرف المطاعم التى تقدم هذه الوجبات.. فبادرنى قائلاً:

- أنا أعرف...

فقلت له إذًا لنذهب للمكتبة أولاً فالوقت قد تأخر وأخشى أن يتم إغلاقها... فقال لى:

- بل المطعم أولاً!!

لم أجد بدًّا من ذلك ولا وقتًا للتفكير ووافقت وذهبنا، وجلس هو وأكل بشراهة وهو ينظر لى فى تعجب ويسألنى مستغربًا: كيف لا تلتهم هذا الطعام اللذيذ..؟!

أما أنا فقد كنت مشفقًا على الإنسانية والمروءة التى كنت أظنها لا يمكن أن تنحدر مثل هذا الانحدار، وقمت و لم آكل شيئًا!

وقررت فى اليوم الثانى أن أقتحم الحياة فى المدينة وحدى مهما كلفنى الأمر من عناء .. وأن أكتسب خبرتى فى الحياة وحدى..

من أجمل العادات التى تعلمتها فى بداية الحياة آنذاك شراء الكتب، وهذا الرجل الطاعن فى السن الذى يبيع الكتب والمجلات بجوار مطلع كوبرى الهلالى أمام محطة أسيوط، وكنت كل يوم بعد صلاة المغرب مباشرة أتوجه إليه عابرًا شارع يسرى راغب الذى أتذكر منه كل شيء حتى الآن!

ولا أستطيع أن أصف سعادتى وأنا عائد إلى غرفتى ومحمل بالكتب.. وكان معظمها أدب إنجليزى مترجم .. وعرفت لأول مرة يوسف إدريس وأنيس منصور ومارك توين وسارتر وفولتير وروبرت لويس ستيفنسون.. أما تشارليز ديكنز فقد عرفته وقرأت له قبل أن أقرأ لأى أديب عربى!

وعشقت القراءة ووجدت فيها انفتاحًا على العالم وعلى الفكر .. وامتلأت غرفتى بالكتب وامتلأت رأسي أيضًا.

●●●

الجامعة

لا شك أن حياة الجامعة هى أجمل الأيام فى عمر الكثيرين منا، ففيها العلم، وفيها التعرف على أناس من شتى الأنحاء، وتستطيع أن تعرف كثيرًا من العادات والتقاليد وصنوف عدة من البشر، والحياة التى تختلف من مكان لآخر، وجامعة أسيوط من كبرى الجامعات فى مصر، بل لها رونق أصيل ينافس جامعة القاهرة نفسها، الشيء الوحيد الذى كنت أستنكره على كثير من الزملاء، وكنا نسهب فى جدال طويل حوله، هو الاهتمام المبالغ فيه فى تلك الصداقات الوهمية بين الفتيان والفتيات، وربما كان ذلك كذلك لطبيعة الحياة القروية لنا، فلم يكن اهتمام الكثير سوى معرفة الفتيات وعقد صداقات معهن .. وكنت أنا رافضًا لهذا الأسلوب وأستهجنه أيما استهجان، وأنكره على جميع زملائى، ناصحًا لهم إن وجودنا فى الجامعة هو للدراسة وليس للتسكع مع الفتيات .. إنه أسلوب غير حضارى وينم عن اضمحلال الفكر وانعدامه فى كثير من الأحيان.

وكنت أسألهم لم لا يترك الموضوع للمصادفة أو نقاش جماعي فى إطار الدراسة؟

وقد قررت ألا أتعرف على أية فتاة أو الحديث مع أية واحدة .. وقد فعلت ذلك حتى أنهيت دراستى!!!

بل أخذ الموضوع حيزًا فلسفيًّا فى كثير من الأحيان وكأننا فى مسرح (أوتيل دى بور جونى) أو مسرح (فوار دى سان جيرمان) بفرنسا ... فكثيرًا ما كنا نتناقش فى ذلك أمام المدرج قبيل وصول أساتذة القانون، وتدور نقاشات بينى وبين بعض الزملاء التى تربطنى بهم علاقة صداقة وحب الفلسفة أيضًا، أذكر ذات مرة أنه أقبل على أحد أصدقائى وهو ممن يفتخر بتعدد صديقاته ... ووقف فى مواجهتى وعلى مقربة منى ثم أخذ يمط فى شفتيه ويميل رأسه فى حركة عجيبة!

وابتسمت أنا وقلت له:

- ما وراءك يا عصام؟

فقال لى:

- كنا نحسبك طيبًّا واتضح أنك مارد جبار!

وضحكت أنا قائلاً:

- لا أعرف ماذا تقصد؟ أرجوك تكلم بوضوح.. لم يتبق سوى دقائق وسيبدأ د. عبد الخالق ثروت محاضرته فى الإجراءات الجنائية، ولن أضيع المحاضرة من أجل هذيانك هذا.

- هل تعلم الزميلات ماذا يطلقن عليك؟

- ألا يوجد لك حديث سوى الحديث عنهن ؟.... إننى أشفق عليك كثيرًا أيها المراهق..

فنظر لى قائلاً:

- إنهن يطلقن عليك لقب عريس الدفعة.

ثم نظر لى فى تمعن يريد أن يرى وقع هذ النبأ الذى زفه لى..

ونظرت له دون أن أبتسم وسألته:

- وماذا بعد؟

- ألا يعنيك هذا؟

- لا يعنينى ذلك فى شيء.. إنهم أحرار فيما يقولونه وأنا حر ألا ألتفت إليهن.

وأخذ هو يجز على نواجزه ويتميز من الغيظ متهمًا إياى أننى لم يخلق مثلى اثنان فى التكبر والعجرفة ..

فقلت له:

- إن هذا ليس تكبرًا ..إنها مسألة مبدأ .. هل أنت سعيد وأنت تضيع أيامًا وأسابيع وأنت تتبع واحدة منهن من أجل

obeikan.com

أن تتعرف عليها، وتقف معها يومًا ما وترتشفان كاسات المياه الغازية وترتشفان كذبًا وزورًا إنكم أحرار ومتحضرون.. إنكم أبعد ما تكونوا من هذه الحضارة والحرية .. إنكم عبيد ... عبيد الهوى والفراغ الفكرى .. إنكم اخترتم الهوى لتعبدوه؛ لأنه لن يكلفكم شيئًا .. لا تحصيل علم ولا فكر .. إن ضحكاتكم تثير عندى الشفقة والازدراء .. مساكين أنتم ... إننى أجزم أن الكاتب والمفكر الإنجليزى الساخر الدوس هيكسلى كان من الممكن جدًّا أن يستبدل روايته (عالم رائع جديد) بأن يكتب عن هرائكم هذا...

أما هو فراح ينتقد إسهابى فى فلسفتى وكلامى قائلاً:

- أنت لا تستحق اللقب الذى أطلقته عليك .. إنك جاهل ورجعى ... لكن المصيبة الكبرى والحقيقة التى أعرفها جيدًا أنهن لا يلفت انتباههن إلا أمثالك... من يزهد فيهن .. يا للعجب..

أما سبب تسميتى بهذه التسمية أننى كنت أذهب إلى المحاضرة بالزى الرسمى ورباطة العنق.. وكنت أطول زملائى.. وإذا مشيت بجوار أحد لا يعرفنى ظن أننى معيد، وليس طالبًا خاصة الفتيات!!

أما حفلات الكلية فلم أحضرها إلا مرة واحدة وبإلحاح من أصدقائى..

والحفلة كانت تقدمها القناة التلفزيونية السابعة قناة شمال الصعيد .. وحدث وأن أجريت مسابقة ذات جائزة مالية أثناء تقديم الحفل.. بين فريقين.. اثنين من الطلبة واثنتين من الطالبات ، وأثناء توقف كاميرات التصوير أشار المذيع والمذيعة أن أصعد إلى المسرح ... وكان ذلك الاختيار أيضًا أننى أرتدى حلة كاملة ورباطة عنق ظنًّا أننى واجهة للظهور فى البرنامج !!

لم أجد بدًّا.. وصعدت أنا وآخر وأصبحنا فريقًا، وصعدت فتاتان وشكلتا فريقًا منافسًا.. ومن العجيب جدًّا، ومما جعلنى أكاد أنفجر ضحكًا أثناء التسجيل أن إحدى المتسابقتين أرادت منى أن أخبرها بإجابة السؤال الذى طرح عليها!! وكانت الفتاة تريد أن تجيب باستماتة، وكأن الموضع غاية فى الجدية وكانت تتصبب عرقًا... وأخذت تنظر لى فى استعطاف وبلاهة ولكن دون جدوى منى.

وأعلن مقدما البرنامج والحفلة بفوز فريق الشباب على الفتيات .. وأخذت أنا الجائزة بعد إجابتى على جميع الأسئلة السهلة التى تنم عن جهل واضعها أو استخفافه بثقافة المتسابقين، وخرجنا أنا وأصدقائى بعد أن أصروا أن أنفق المبلغ الذى حصلت عليه عليهم .. وفعلت ..

وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التى أحضر فيها حفل فى الجامعة ..

والسبب هو عدم إيمانى بهذا الهراء والصخب، وأنه لا يعدو أن يكون نوعًا من الترف ..

●●●

obeikan.com

يوسف.... أيها الصديق

تعرفت على أول صديق لى من أسيوط .. اسمه يوسف، ومع حبى له نذرت أن أسمى ابنى على اسمه.. وقد وفيت بهذا النذر فى يوم ١/ ١ / ٢٠٠٨ والغريب أن هذا حدث فى أسيوط أيضًا!!

وكان يوسف هذا من أكرم من قابلتهم فى حياتى، أما كيف بدأت المعرفة، فقد كان ذلك مصادفة.. فقد كانت هناك مباراة كرة قدم بين المنتخب المصرى فى إحدى البطولات لا أذكرها الآن.. وقد أصر علينا.. أنا ومجموعة من الطلاب المغتربين الحيارى أمثالنا حيث لا أهل ولا بيت فى الغربة، أن نذهب معه لمنزله لمشاهدة هذه المباراة المهمة، أما أنا فقد رفضت الذهاب معه كمبدأ .. إن الذهاب لمنزله وإكرامه لنا لن نستطيع أن نرده له .. وكيف نرده ونحن «محتاسين» فى الغربة .. ولكنه أصر إصرارًا عجيبًا حتى أنه غضب منى أيما غضب .. ولم أجد بدًّا فى النهاية وذهبت معهم، كان المنزل عبارة عن عمارة كاملة من أربعة طوابق ملك أبيه .. بجوار مسجد سيدى جلال الدين السيوطى الذى ينحدر نسبه إليه .. وكان والده رحمه الله الحاج عيد يمتلك أكبر معارض الموبيليا فى منطقة العتبة الزرقاء التجارية ..

والذى كنت أخشاه قد حدث .. فقد احتفى بنا صديقنا أيما احتفاء.

وبعد يومين وجدته ينتظرنى أمام مدرج الكلية وهو يركب دراجته النارية! صافحته، وقال لى: اركب .. قلت له إلى أين؟

فقال إلى المنزل طبعًا .. إن المنتخب المصرى سيلعب مباراة مهمة جدًّا اليوم وأنا أستبشر بك..

فجاوبته إننى مشغول .. وليكن ذلك فى يوم آخر.

ولكنه صمم فى إلحاح عجيب .. ولم أجد مفرًّا منه..

والكرم فى المرة هذه هو ذاته فى المرة الأولى

وقابلت والده ووالدته اللذين كانا أشد كرمًا وأدبًا وأخلاقًا ..

وأصبحت عادة عندى.. حينما أسافر من قريتى إلى أسيوط أتوجه مباشرة لمنزله وفى نهاية اليوم أعود إلى غرفتى وغربتى وكتبى..

فى هذا الجو الجديد لك أن تتخيل هذا المنظر البديع، المعرض والمنزل فى قلب منطقة شعبية حيث الحياة البسيطة والجو المفعم بالعراقة وعبقرية المكان والزمان!

إن أجمل ما كنت أراه هو هذه الفرحة التى كانت ترتسم على شفاه العروسين وأهلهما أثناء تفقدهما المعرض، وانتقاء أساس منزل الزوجية والحياة الجديدة والأمل فى أيام قادمة تحمل السعادة والهناء.

وكنت أعشق الجلوس بجوار الحاج «عيد» كثيرًا فى المعرض الموجود بجوار المنزل، وهو رجل عصامى وثرى جدًّا وكريم جدًّا جدًّا .. وكثيرًا ما قابلت أولياء الله الصالحين عنده .. أشهرهم هو الشيخ (أبو بطانية)! هذا الشيخ يعرفه أهل أسيوط جيدًا.. قابلته مرة واحدة فى الساحة الخليلية (سيأتى ذكرها فيما بعد)، وهو عار تمامًا لا يرتدي سوى بطانية فوق اللحم .. ولا أعرف سببًا لذلك بالتحديد!

بعد ذلك زرت معظم محافظات مصر فى عملى بمهنة المحاماة، وعرفت أناسًا كثيرين لكننى لم أجد أحدًا يعشق أولياء الله الصالحين والصوفية مثل أهل أسيوط!

إنها حياة جميلة وجو أجمل مفعم بالتاريخ وحضارة عريقة تستطيع أن تلمسها فى أى مكان فى هذه المدينة العتيقة..

●●●

obeikan.com

العاشق المتيم

أثناء زيارتى لصديقى يوسف قابلته .. صديقه.. نادر ..

ونادر هذا من أغرب الشخصيات قاطبة، والمصادفة الغريبة أننا ثلاثتنا؛ يوسف وهو وأنا نحمل نفس تاريخ الميلاد!

من أول وهلة تستطيع أن تجزم أنه من زمن ليس زمننا .. إنه من زمن قيس بن الملوح وجميل بثينة ... إنه يتنفس عشقًا وحبًّا وولهًا، وكثيرًا ما كان يغيب عن وعيه حينما يذكرها..!!

وتعجبت كثيرًا من قصة حبه وعشقه الذى دفعه حتى حافة الجنون!

عندما قام يوسف بتعريف كل واحد منا .. وحينما سألنى فى أى مكان أسكن .. وحينما أخبرته بالمنطقة التى أسكن بها اغرورقت عيناه وأصابته صبابة، وأخذ يتنهد بعمق.

وعرفت سبب ذلك بعدها بأيام قليلة .. فقد كانت ليلاه تسكن فى نفس المنطقة التى أسكن فيها!

ورأيتها مرة واحدة .. كانت نحيفة جدًّا ذات بشرة خمرية ولم تكن جميلة .. أو هكذا حسبتها..!

وعندما علم والدها بقصة حبه لابنته، هدده عبر الهاتف كثيرًا . . ووالدها شرس جدًّا، وتوعده أكثر من مرة بقتله .. وقد حدث فيما بعد أن حاول ذلك لولا إرادة الله التى أنقذته من بين يديه!

قام صديقى بالدخول فى إحدى الطرق الصوفية وأصبح زاهدًا ناسكًا!! وتحول نادر من شاب عربيد إلى مريد فى إحدى الطرق الصوفية!

فقد وجد أن تقربه إلى الله سوف يساعده على الزواج منها.

وكان يعود متأخرًا كل ليلة .. فلا أحد يلفته عن ذلك، فوالده طاعن فى السن وأخيه الأكبر رجل أعمال ويعيش فى محافظة بوجه بحرى، وهو أخيه لأبيه.. أما شقيقه الآخر فهو أصغر منه بكثير...

وكان يمر بى قبل أن يذهب للبيت والاستعداد لصلاة الفجر، ويحدثني عما رآه وتعرض له من نفحات!!

وكنت فى الفرقة الثانية.. وفى سكنى الجديد أيضًا حيث أننى قمت بتغيير السكن بعد خبرتى التى اكتسبتها العام المنصرم من الدراسة وتفقد المدينة المسحورة!

كنت فى الطابق الرابع وكان هو ينادينى كل ليلة حتى عرف أهل الشارع كله هذا الميعاد وزائر ما بعد منتصف الليل.. وكل ليلة أنظر من الشرفة وأطلب منه الصعود، ولكنه يخبرنى أنه فى عجالة من أمره، ويود الاطمئنان عليّ والحديث لبضع دقائق.. وأنزل أنا له.. ولكن الدقائق تصبح ساعات .. ويأتى آذان الفجر .. ونذهب للصلاة فى (مسجد ناصر) وكان يصلى بنا رجل من أعظم ما يكون الرجال .. إنه الأستاذ مختار موجه الفيزياء .. صاحب تلاوة وخشوع لم أرهما فى حياتى! فكنت لأول مرة أعرف البكاء والخشوع الشديدين فى الصلاة بهذه الصورة والنورانية والصفاء..

وكنا فى رجوعنا ندلف إلى محل الجيش بشارع الجيش ونشترى الخبز المضاف إليه التمر، ونتناول إفطارنا هذا ونحن نتسكع فى شوارع أسيوط .. ونستمتع بهواء الصباح العليل ولحظة ولوج النهار في الليل ..

كان ذلك يحدث مرارًا وشبه يومي.

ثم في ليلة من ذات ليالى الشتاء القارص، وكنت أذاكر فى أحد كتب الدراسة ... كانت الواحدة وخمس دقائق صباحًا.. لم أعرف سببًا أو معنًى للذى دار بذهنى فى هذا التوقيت بالذات وجال بخاطرى!!

فجأة وكأننى أرى أمامى صديقى نادر يخرج من منزله يجرى اتصالاً هاتفيًّا بحبيبته .. ففى عام ١٩٩٧ لم تكن هناك هواتف نقالة بعد .. وكانت هناك كابينة هاتف صغيرة أمام منزله.. وتحدث معها وكأننى أسمع كل كلمة دارت بينهما!

أما كيف حدث ذلك وتفسيره فلم أعرف!

عندما زارنى فى اليوم التالى وأخبرته بما تخيلته فى الليلة الماضية، وعن الحديث الذى دار بينه وبين حبيبته.. بل أكثر من ذلك أن المدة التى تحدث فيها إليها هى سبع عشرة دقيقة... فتح فيه إلى آخره فى ذهول ... وقال لى: كيف عرفت هذا؟ إن ما قلته حدث بالحرف الواحد وفى نفس التوقيت بالدقيقة والثانية، وكاد يجن.. وطلب منى تفسيرًا وأقسمت له أننى لا أعرف أى تفسير.

●●●

مدد يا دكتور

غاب عنى عدة أيام .. فقد انشغل بهذا الموقف الأخير كثيرًا .. بل ذهب عقله وجنونه بمحبوبته، وظن أننى أستطيع أن أعرف أخبارها عن طريق الموهبة الجديدة الخارقة التى اكتشفها بي!

زارنى ذات ليلة وصافحنى وعانقنى كأننا لم نر بعضنا منذ سنوات .. على الرغم من أنها بضعة أيام لم تجاوز الأسبوع!

ثم نظر لى قائلاً:

- أبشر

فقلت:

- بماذا؟

وأجاب: د . «م .ض « بنفسه يريد أن يقابلك!!

- ومن هو د «م .ض «؟

- هو فى تعجب:

- ألم تسمع عنه؟

- لا ....

- إنه أشهر ولى من أولياء الله الصالحين وأحد العارفين بالله الذين عرفتهم أسيوط!!

obeikan.com

إنـه دكتـور فـى جامعـة الأزهـر ويقصـده الكثيـرون ومـن شـتى أنحـاء الجمهوريـة لحـل مشـاكلهم .. إنـه يمتلـك قـدرات خارقـة..!!

- لكني لا أتحمس أن أتعرف عليه..

وتعجب هو كثيرًا من ردة فعلى على دعوته وقال لى مستنكرًا:

- كيـف ترفض دعـوة مثل هـذا الرجـل العظيـم الـذى يتمنـى أى شـخص الجلوس بـين يديـه ولـو دقائـق..؟!!

وبعـد إلحـاح أقنعنـى بالذهـاب مـن أجلـه ومـن أجـل توطيـد العلاقـة بينـه وبـين هـذا العـارف بـالله.

وذهبت وقابلته فى منزله .. وتركنا صديقى وحدنا..

ولدهشـتي كان رجـلاً كفيفًـا فـى الخامسـة والأربعـين مـن عمـره .. يمسـك بمسـبحة كبيـرة بعـض الشـيء مصنوعـة مـن الخشـب .. وأمسـك بهـا بـين إصبعيـه وتوجـه بعينيـه إلـى أعلـى فـى خشـوع محـركًا رأسـه بعـد كل هنيهـة مـن أعلـى إلـى أسـفل ومـن يمنـة إلـى يسـرة.. وسـاد صمـت لبضـع دقائـق ..

قلت له:

- دكتـور «م» ... مـا هـو الشـيء الـذى حـدث لـى .. أقصـد الخاطـر والعـرض الـذى رأيتـه أمـام عينـى وحـدث مـع صديقـى نـادر ومـن يحبهـا؟

فرد عليّ قائلا:

ـ إنها نفحة الكشف !!

قلت له دهشًا:

ـ لا خبرة لى بهذه الأمور ولا أعرف عنها شيئًا!

فقال فى هدوء:

ـ إنها نفحة وهبة من عند الله، يمكن أن توفق فيها وتكون مصاحبة لك إذا دخلت فى طريقة صوفية .. أو ذكرت الله كثيرًا!

فقلت له:

ـ إننى لا أرى نفسى كفؤًا لكى أدخل فى طريقة صوفية، إننى شخص عادى جدًّا بل ربما أقول إننى إنسان عاص!!

رد عليّ مسرعًا:

ـ هذا هو بداية الطريق!

– كيف؟

– إن اعتراف الإنسان بتقصيره فى جنب الله هو بداية الطريق إلى الله.

– ولكننى ما زلت طالبًا ووقتى مشغول فى الدراسة

- أجل ... يمكنك ذلك بعد التخرج ..

ثم صمت قليلا وقال لى:

يوجد بك خير كثير.. وأهلك طيبون وقريبون من اللّه...

شكرته فى خجل ...

ودار حديث بينى وبينه، فعلم أننى قرأت كثيرًا لأبى حامد الغزالى والأئمة الأربعة، وأننى أعشق الشيخ الشعراوى كثيرًا، وأننى فى هذه الأيام أقرأ فى الفلسفة والأدب الإنجليزى..

وسرّه ذلك كثيرًا .. وكان يعاملنى معاملة الصديق لصديقه، والأب لابنه، والشيخ لمريده .. وكثيرًا ما حدثت كرامات «حسب وصفه» على يديه .. فقد طلب منى أن أتردد عليه فى المقهى الذى يرتاده كل يوم بعد صلاة االعشاء حتى منتصف الليل فى منطقة الأربعين!!!

وبدأت أتردد عليه فى المقهى هذا وفى منزله أيضًا .. وعاصرت قصصًا غريبة معه ..وعلى الرغم من أننى بالنسبة له طالب ليس فى جعبته شيء، ولا زاد من علم إلا أنه كان يحبنى ولا يزال حبًّا كبيرًا أعتز به، وأنا على ود ووصال به حتى يومنا هذا ...

فى يوم من ذات الأيام كنت لدى إحدى قريباتى فى القاهرة رحمها اللّه .. وأثناء حديثها قصت لى قصة ابنة جارتها التى

تخطت الثلاثين بأربع سنوات ولم تتزوج ... والغرابة والمشكلة ليست فى تخطيها هذا العمر .. إنما وجه الاستغراب فيمن يخطبها.

فلا تكاد تمر عدة أيام إلا ويفسخ الخاطب خطبته دون سبب!!!

والفتاة جميلة مهذبة وميسورة الحال .. ووالدتها مهتمة ومهمومة بحال ابنتها التى تخطب كل شهر أو شهرين، ويهرب الشاب دون سبب واضح حتى كادت الفتاة تزهد فى الزواج وتلغيه من حياتها..وهى تحدثنى عن هذه القصة التى كانت تراها عجيبة.. تذكرت الدكتور الشيخ «م.ض».. وجال بخاطرى شيء .. اعتدلت فى جلستى وتحدثت إلى قريبتى حديث الواثق الخبير في هذه الأمور:

- إن هذا الموضوع حله عندى إن شاء الله.. وما إن أنهيت آخر كلمة حتى نظرت لى فى استغراب ولهفة وسألتنى:

- كيف؟

قلت لها إننى أعرف رجلاً من أولياء الله الصالحين وبمشيئة الله سأتوجه إليه فى أسيوط حين تسنح لى الفرصة.. وأخبرتنى هى أن ذلك شيء مهم جدًّا وأنه سيكون سببًا فى سعادة الفتاة وأمها سعادة كبيرة.

وبالفعل ذهبت إليه وأعطانى ورقة مكتوب فيها آيات من القرآن.. ولكنها مكتوبة بمداد من نوعية خاصة .. مكون من ماء الورد والمسك ودم الغزال!!!! وما أكثر ما تلطخت يداى بهذا المداد أثناء الكتابة!!!! فالدكتور «م .ض» رجل كفيف .. وعندما أكون فى زيارته ويأتى شخص فى صحبة أهله وقد جزم الأطباء أنه لا يوجد به شيء عضوي ملموس أو معروف علميًّا لحالته .. وقتها يتوجه بهذا الشخص إلى أحد المشايخ .. ومحظوظ جدًّا من يعرف الدكتور «م .ض» فالناس تأتى إليه من كل فج عميق، ومن مختلف المحافظات والبلاد.. ومختلف الرتب والمراتب أيضًا!!! عدت إلى القاهرة وأعطيت هذه الورقة لقريبتى لكى تعطيها للفتاة ووصفت لها كيفية الاستخدام...لم يمر شهر إلا وكانت الفتاة متزوجة !!!!

كيف حدث ذلك؟ لا أعرف حتى الآن... ولكنه حدث!

نعود لصديقنا نادر الذى لم يترك بابًا إلا طرقه، ذات مرة فى وقت الأصيل مررت عليه فوجدته يجلس أمام منزله مع شيخ طاعن فى السن يتجاوز المائة عام من عمره، وبعد أن صافحتهما أشار لى أن أنتظر قليلاً حتى ينهى حديثه المهم مع هذا الشيخ الذى يبدو عليه أنه لم يخرج للدنيا منذ عهد بعيد، وأنه من الممكن أن يكون من أهل الكهف!

كان نادر يتحدث معه فى اهتمام وانتباه بالغين، ويبدو أنه يريد شيئًا مهمًّا من هذا الشيخ.

بعد قليل أخبرنى أنه سيحصل على كتاب قديم جدًّا يعود لمئات السنين!! هذا الكتاب به عدة صفحات مهمة، هى «عدية يس» ...

وبعد محاولة حذرة محفوفة بالمخاطر، فقد كان الكتاب يعد أثرًا نادرًا وأوراقه أصابها الوهن ويكاد لمسها يمزقها.. أخيرًا نجح فى حمل الكتاب وتصوير هذه الأوراق، وطلبت منه أن يقص على ما سيحدث معه بعد قراءتها ..

وفى إحدى ليالى الشتاء جاءنى وهو يتصبب عرقًا ويرتعش!

وقال لى إنه قرأ سورة يس ٣٠ مرة، وكان من المفترض أن يقرأها ٤١ مرة .. وحينما سألته عن سبب توقفه عن تكملتها نظر لى بعينين جاحظتين أرهقهما السهر، وقال لى إن أشياء كثيرة حدثت فى الغرفة .. فالمصباح المتدلى فى السقف أخذ يتمايل يمنة ويسرة، وأن المقاعد أيضًا تحركت وارتفعت لأعلى، وأن نورًا سطع فى الغرفة !!!

وسألته في ذعر:

- وماذا فعلت بعد ذلك أيها المجنون؟

أجابنى وهو يرتعد:

- لقد لذت بالهرب والفرار من خارج الحجرة ومن خارج المنزل كله .. فلقد شعرت برعب وخوف شديدين وخرجت هائمًا فى الشارع وأنا مذعور وما زلت!!

حاولت بعدها مرارًا وتكرارًا أن أخرجه من هذه الصبابة والعشق الذى كثيرًا ما كان يأخذه إلى غياب عقله وإدراكه ولكن دون جدوى .. وانتشرت قصة حبه.. فكل العائلة والجيران عرفوا بهذه القصة وهذا الجنون، فلم يترك أحدًا فى أى تخصص أو علم إلا استوقفه وحكى له قصة عشقه، وطلب منه أن يساعده فى الحصول على محبوبته.. لكن دون جدوى.. مسكين..

كنا نخرج بالليل كثيرًا.. وكان أجمل مكان يحب هو أن يتحدث عن محبوبته هو كورنيش النيل وأمام مديرية امن أسيوط !!!

وكثيرًا ما كان يأتينا تنبيه من ناحية مبنى المديرية أن نغادر .. خاصة إذا كانت الساعة قد اقتربت من الثانية صباحًا!!

أما الطلبة الزملاء فى السكن فكانت تتملكهم الحيرة فى أمرى .. أين أذهب كل ليلة؟! ولماذا لا أعود إلا إذا اقترب الفجر أو بعده؟! وكيف لا أخشى دوريات الأمن التى تجوب الشوارع ليلاً؟!!

لكننى كنت دائمًا أحب المغامرة والخروج عن المألوف والحياة فى حرية وانطلاق ...

هل أردت أن أعوض سنوات عمرى الأولى التى كنت فيها حبيس القرية؟ ربما .... حتى الآن السفر والترحال والسهر والتسكع فى شوارع القاهرة والمدن الأخرى، وقراءة وجوه البشر وعاداتهم وهمومهم وآلامهم هو ما يشغل فكرى..

●●●

obeikan.com

obeikan.com

مدد يا شيخ صالح أبو خليل !!!

نعود إلى نادر وأجواء العفاريت إياها..

فقد كانت الطريقة الصوفية التى التحق بها من أجل أن يحصل على محبوبته هى «الطريقة الخليلية»،

وهى واحدة من عشرات الطرق الصوفية الشهيرة فى مصر.

ذات يوم بعد صلاة المغرب، زارنى نادر وطلب منى أن أذهب معه إلى منزله؛ لأن هناك شيئًا مهمًّا يريدنى أن أراه!!!

وذهبت معه وأدخلني حجرة الضيوف المطلة على الشارع فى الدور الأرضى، وتركنى لدقائق قليلة ثم عاد وهو يمسك بصورة ذات حجم كبير موضوعة فى برواز ذهبى منمق، وكان وهو يحملها ينظر بإمعان فيها، ويمسكها بحذر شديد كأنه يمسك أنبوبًا به بعض جزيئات اليورانيوم المشع !!

ثم جلس بجوارى، وأطال النظر فى الصورة، ثم طلب منى أن أتناولها منه بحذر شديد، فهى صورة الشيخ صالح أبو خليل وهو شيخ الطريقة الصوفية الذى يمتد نسبه - كما قال لي - إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .... ومن الصعب جدًّا أن ينال أحد هذه الصورة .. واقتناؤها علامة من علامات القبول!! ..

وحملت عنه الصورة ووضعتها على فخذي، ونظرت إليها، وأطلت النظر .. وشعرت بأن الشيخ صالح يتحدث إليّ !!! ويقول لى وأرد عليه! كيف هذا؟ لا أعرف!

وكان نادر ينظر لى فى ترقب شديد تارة، وتارة أخرى إلى الصورة، وفجأة انتابتنى رعشة وانتفاضة!!! وكادت الصورة تسقط من بين يدى لولا أنه وفى حركة لا إرادية مد يديه فى غاية السرعة وأمسكها عنى!!

ثم نظر لى سائلاً فى حيرة:

ماذا حدث؟

فقلت:

- لا أعرف.. والتزمت الصمت ...

دخل هو ليضع الصورة داخل حجرته كأنها قطعة أثرية نادرة يخشى عليها.

ثم جاء يقول لى:

- علينا الآن أن نذهب

فسألته: إلى أين؟

فقال لى:

ـ الساحة الخليلية!!

ـ ولم؟

ـ لا بد وأن تدخل معى الطريقة الخليلية

ـ لا.... لا أحب أن أدخل أى طريقة .. فليس هناك وقت لهذه الأمور.. علىّ أولاً أن أهتم بدراستي فحسب.

ولكنه أصر إصرارًا عجيبًا .. وفى نهاية المجادلة طلب منى أن نقوم فقط بزيارة هذه الساحة ومصافحة الأخوة هناك ثم العودة .. مجرد تعرف على شيء جديد سمعت عنه كثيرًا ولم أشاهده.

وقد كان!

الساحة الخليلية هى عبارة عن شقتين متقابلتين فى الطابق الأرضى من العمارة المواجهة لمسجد خلف محطة قطار أسيوط .. الشقة اليسرى هى عيادة للدكتور / «ع . م» طبيب نساء ونقيب أطباء أسيوط وخليفة الشيخ صالح أبو خليل فى محافظة أسيوط!! أما الشقة المقابلة فيطلق عليها ساحة، وكلتاهما مفتوحتان ليل نهار للذكر ومقابلة الخليفة إذا كان موجودًا حينذاك..

ولكل محافظة خليفة واحد إلا أسيوط فلها اثنان والخليفة الثانى هو المستشار / «م . م» رئيس النيابة الإدارية بالوادى الجديد حينذاك.

حينما اقتربنا من الساحة شعرت برهبة، فما قرأت عن الطرق الصوفية والعارفين بالله وما لهم وما عليهم والكرامات الكبرى سأشاهده بعد دقيقة أو اثنتين..

وأمسك صديقى بذراعى ودخلنا، وتوقف فيما بين الشقتين ونظر إلى يساره فلم يجد صخبًا ولا إخوة له وهذه علامة بأن الخليفة ليس موجودًا،

فدخل إلى الحجرة اليمنى والتى أول ما ترى فيها أمامك .. حجرة صغيرة خصصت لتحضير الشاى للمريدين ..

وما إن دخلنا حتى رأينا أحد الملهمين يقوم بعمله المنوط به!!!

والملهم بضم الميم وفتح الهاء هو هذا المريد الذى أعطاه شيخه نفحة الإلهام! أى إنه يجلس بين إخوانه فى الطريقة ويقوم بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت الأطهار بأسلوب به سجع جميل، وهدوء وطمأنينة وهو مغمض عينيه ثم يفتحهما وينظر بعينيه ويشير بإصبعه إلا أحد المريدين من حوله، ويقول له فى نبرة المديح أشياء تدور بينه وبين شيخه.. فالملهم لا يفعل

شيئًا سوى استقبال الرسائل من شيخه وتوجيهها للمريد!! .. وهذه الرسائل والكلمات لا يفهمها إلا المريد نفسه .. وهى غالبًا تكون عن المشكلات التى يواجهها المريد فى الطريق إلى الله أو المشكلات فى حياته الخاصة، أو مواعظ وحكم الشيخ للتثبيت على الطريق، وهذا الإلهام لا يوجد فى أى طريقة أخرى كما يقولون!!!

وحتى إذا ما اقتربت أنا وصديقى إلى هذه الحجرة، وكان أحد الملهمين كما ذكرت يقوم بإلهامه لبعض إخوانه المريدين، وكان وجهه إليهم وظهره إلى الباب، فغيّر وجهته ونظر إلى الباب حيث نادر وأنا ... ونظر لى وقال فى أسلوب المدح والسجع الجميلين الهادئين فيما معناه أن الذى يحدثنى هو الشيخ صالح الآن! .. أى إن هناك رسالة منه لى .. مفادها أننى رأيت صورة الشيخ صالح منذ قليل عند أحد المريدين، وأخبرنى بالحديث الذى دار بينى وبينه!

وأخبرنى بالكلمات التى جالت فى خاطرى عندما كنت أمسك الصورة!!!

وهنا أصبت بالصاعقة والذهول!!

كيف عرف هذا الرجل ما دار فى خاطرى بالحرف الواحد؟ ومن أخبره بأننى رأيت الصورة عند صديقى؟

وجال بخاطرى أن هذا من عمل الشيطان، فلا تفسير عندى سوى ذلك، فنظر لى الملهم قائلاً فى نبرة المديح أيضًا:

- إن الشياطين لا تجلس بمجلس يذكر اسم الله فيه ويصلى على الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم !!

ونظرت فى الأرض خجلاً ..

وأخبرت صديقى بأن علينا أن نغادر الآن، فهذا الذى رأيته يكفى جدًّا، ولكن صديقى رفض.. وأخبرنى أن علينا أن ندخل الساحة .. ففى الداخل حجرة واسعة علىّ أن أراها .. ودخلنا واكتفيت بإلقاء نظرة عابرة من خارجها .. فالحجرة عبارة عن حجرة عادية جدًّا خلت من كل شيء سوى سجاد على الأرض وصور كثيرة للشيخ صالح أبو خليل ووالده وأجداده مصفوفة على الحائط!!

وكان نادر يود أن نمضى أكبر وقت ممكن.. فقال لى:

- إن هناك صورة لرجل أعلم أنك تحبه كثيرًا.

فسألته: من؟

فقال: الشيخ الشعراوى.. إن له صورة والشيخ صالح يجلس بجواره!!

كان ذلك سببًا كبيرًا لموافقته الدخول .. فأنا أعشق الشيخ الشعراوى عشقًا كبيرًا وأجله إجلالاً عظيمًا، فهو قطب زمانه وآية من آيات الله الكبرى.

ودخلت وشعرت بالخشوع والطمأنينة.. أما الطمأنينة فتسللت إلى روحى ونفسى بمشاهدتى شيخ الطريقة يجلس بجوار الشيخ الشعراوى.

فجأة دبت فى الساحة حركة غير عادية، وكأن شيئًا غير عادي سيحدث فى الثوانى القليلة القادمة، وحدث هرج ومرج، وزاد عدد الرجال فى الساحة وازدحم الناس ازدحامًا شديدًا، وكنت أنا أنظر فى ترقب وارتباك، ونظرت لصديقى نادر فوجدته يبتسم ويستبشر ويهلل ويكبر بصوت منخفض، فسألته:

- ما الأمر؟

فأجابنى: إن الخليفة د «ع م»، المستشار «م.م» قادمان الآن وهذا شيء عظيم.

وخرجنا من الحجرة فى الساحة اليمنى متوجهين إلى الساحة المقابلة التى كان يجب أن تكون عيادة النساء للدكتور «ع.م» إلا أنه وهبها للطريقة وللمريدين!!

لـم أتمكـن مـن رؤيـة واحـد مـن الخليفتـين، فقـد كان الازدحـام شـديدًا، والـكل يحـاول أن يفـوز بتقبيـل يـد أحدهمـا أو مصافحتـه!!!

وتعالت الصيحات: مدد يا عم الشيخ صالح

وكأن الخليفتـين رسـولان قادمـان مـن عنـده ويحمـلان النفحـات والبركـة التـى مـن الممكـن أن تصيـب واحـدًا مـن المحبـين والمريديـن الملتفـين حولهمـا!

ومـا كان يميـز صديقـى هـو أنـه شـخصية اقتحاميـة لا تخجـل .. فحيـاة العربـدة التـى كان يحياهـا منـذ زمـن ليسـت ببعيـدة مـا زالـت تعطيـه الجـرأة فـى التعامـل والحديـث مـع الآخريـن دون شـعور أو تعمـد منـه.

وطلـب منـى أن أنتظـره قليـلاً.. فعليـه أن يشـق هـذه الصفـوف ويدخـل لمقابلـة الخليفتـين فـى أمـر مـا.

وتركنـى وأخـذ وقتًـا ليس قصيـرًا فـى طريقـه إلـى الحجـرة التـى يوجـد بهـا كلا مـن خليفـة الشـيخ صالـح، وأخـذ يزيـح فـى أدب بيديـه مسـتأذنًا إخوانـه فـى المـرور.. ومـا إن اقتـرب مـن بـاب الحجـرة التـى يهابهـا المريـدون كثيـرًا، ولا أحـد يدخـل إليهمـا أو يقابلهمـا ويتحـدث إليهمـا إلا إذا كان مقربًـا جـدًّا أو لـه حاجـة ملحـة .. فعلـى الجميـع الانتظـار لخروجهمـا والاسـتماع والمناقشـة فـى الوقـت الـذى يحـدده الخليفتـان أو أحدهمـا حسـب انشـغاله وفراغـه.

واقترب نادر من باب الحجرة وأبلغ من يقف على الباب أن عليه أن يقابل الخليفتين فى أمر ما، ولم ينس أن يتم كلماته بقوله ... مدد يا عم الشيخ صالح... فهو يعلم أن تلك الكلمة هى المفتاح للأبواب المغلقة، والشفيع عند أى مطلب أو سؤال !!!!

وأفسحوا له الطريق ودخل وسلم عليهما ثم اقترب وهمس للدكتور «م.ع» أن معه صديق من بلد العارف الكبير قطب الأزمان سيدى عبد الرحيم القناوى، وأن د «م.ض» نفسه أثنى عليه ثناءً حسنًا وطلب مقابلته وصارا صديقين، وهنا هلل الخليفة د. «م.ع» وكبر وأمر بفتح الباب ونادى فى المريدين المتواجدين أمام الحجرة أن هناك أخًا جديدًا سينضم للطريق .. وهنا صاح الجميع وهلل وكبر وتعالت الكلمات بكلمة مدد يا عم الشيخ صالح ... الله اكبر...

خرج نادر فى زهو وافتخار.. فهو الداعى للطريق والمنادى للرفيق ... وانتبه الجميع وصارت أعينهم جميعًا تتوجه إلىّ فى ابتسامة واستبشار... ولم لا؟ فالأخوة يزدادون يومًا بعد يوم .. وهم كثيرون فى باقى المحافظات ، ولكن الكثرة ليست فى العدد .. فالمريد الصادق خير من آلاف الناس خارج الطريق ويجهل الوصول ومعرفة أسباب القبول عند الله!!

أما أنا فكنت لأول مرة أشعر أننى مسلوب الإرادة، فالمسألة كانت لا تعدو أن تكون رؤية شيء جديد فى حياتى رؤية المعرفة والثقافة ومن باب السياحة فى أرض الله الواسعة، أما أن أدخل أنا فى هذا المضمار من المضامير المكلفة على ذهنى ووقتى، فلم تكن فى الحسبان أبدًا .

واقتادنى صديقى إلى الحجرة حيث الخليفتين، وصافحتهما فى أدب وتؤدة، كان على يسارى د. «م.ع» الخليفة الأول، وهو رجل يقارب الستين من عمره ذو وجه مستدير وعينين واسعتين لا تكفان عن الابتسام فى خشوع فى وجه المريدين ، ولا تكفان أيضًا عن الدموع عند سماع آيات الله البينات.

وعلى يمينى كان المستشار م .م .. وكان يبدو عليه الحدة والحزم .. وحاجباه يدلان على أنهما سرعان ما يقتطبان .. نظر لى وسألنى :

- أى علم تدرس ؟

فجاوبته : كلية الحقوق ..

فنظر لى قائلاً : مدد يا عم الشيخ صالح ... بارك الله فيك..

وطلب منى الخليفة الأول أن أضع يدى فى يده لإعطائى العهد!!! وأن أردد وراءه ما سيقول، وهنا انتبه الجميع واستعد لتجديد العهد ، فليس المريد الجديد فقط من سيردد وراء الخليفة ، ولكن كل المريدين الموجودين .. وعلي واحد منهم أن يلمس كتفى ثم يلمس كتفه آخر وهكذا دواليك.. ويرددون الكلمات التى سيقولها الخليفة وأنا أولهم !!

بعد أن انتهى الخليفة من هذه الكلمات التى كان فحواها هو التخلى عن المعاصى والعزم على عدم العودة إليها، وعلى أن نذكر الله قدر الاستطاعة والدعاء للشيخ صالح وآل بيته وآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ثم اختتم هذا المحفل بترديد الآية العاشرة من سورة الفتح (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا). صدق الله العظيم

ثم فتح الخليفة د.«م.ع» أحد أدراج مكتبة وأخرج وردًا ومسبحًا، ونظر لصديقى الذى كان يقف بجوارى وقوف الفاتح العظيم وطلب منه أن يعلمنى كيفية قراءة الورد والتسبيح على المسبحة ذات التسعة والتسعين حبة .

وصافحنى الجميع وسط الدعاء لى بالوصول وأن أرى ببصيرتى آيات القبول .. وأخبرنى أحدهم أن الطريق ليس لمن سبق ولكن الطريق لمن صدق.

وخرجت أنا وصديقى وكأننى كنت فى عالم آخر لم أره من قبل، عالم يفقد الإنسان فيه عقله وجوارحه ويكون فيه مسلوب الإرادة منجذبًا لشيء ما فى روحه.

ولم أذهب ثانية إلى هذه الساحة إلا عدة مرات تعد على أصابع اليد الواحدة !!

أما صديقى نادر فقد كان يذهب فى يومه عدة مرات ملاحقًا الخليفة مرة ، والواصلين والعارفين والكاشفين مرة أخرى ..

وفى إحدى الليالى جاءنى مستبشرًا ونبأنى أن هناك حضرة كبيرة ستقام الليلة فى المسجد المقابل للساحة والتى تقام فيه الحضرات بوجود أحد الخليفتين أو كليهما وعدد كبير من المريدين الذين يختلفون فى درجات علمهم ووجاهتهم .. فهناك تجد ضابط الشرطة والمستشار والطبيب ورجل الأعمال والعامل البسيط والفقير والغنى ... وشتى أنواع الناس .. وقال لى صديقى إن الدكتور العارف بالله «م.ض» لم يحضر منذ زمن هذه الحضرة، حيث أنه تابع للطريقة الخليلية .. وأنه سيحضر الليلة للمشاركة ..

ووددت أن أرى هذا الطقس من الطقوس ، وأرى ماذا يحدث فيها من غرائب !

فقد سمعت كثيرًا عنها وعن النفحات التى يتعرض لها المريدون!

وذهبت ودخلت المسجد .. مساحته كبيرة جدًّا.. واصطف الجميع فى صمت وأدب ، وجاء الخليفتان وجاء د «م.ض» ... وأشار الخليفة الأول لأحدهم ليقوم بتوزيع كتاب على كل واحد من المتواجدين ، والكتاب عبارة عن نهج البردة للبوصيرى .

وكان الخليفة يختار صفحات معينة ليقرأ هو منها ونردد نحن وراءه .

ثم أمر الخليفة بإطفاء المصابيح !!

وتقدم هو لمنتصف الحلقة ، واختار اسمًا من أسماء الله الحسنى (الله) نردده وراءه ببطء وتؤدة فى البداية ثم ما يلبث أن تتدرج نبرة ذكر اسم الله عالية مسرعة !

ثم يقطع الخليفة الذكر لهذا الاسم ويشير لأحد المتواجدين وغالبًا ما يكون رجلاً واصلاً فى الطريق ذا مكانة ومعرفة بطقوس هذه الحضرة الشريفة،

وانتهت الحضرة بعد حوالى ثلاث ساعات أو يزيد.

وبعد أن خرجنا اقتربت إلى د «م.ض» وصافحته، ثم وجه سؤال لى قائلاً :

obeikan.com

- هل رأيت شيئًا ؟

فقلت :

- أجل

فسألنى : ما هو ؟

فقلت :

- رأيت الشيخ صالح يحضر حلقة الذكر وكان يرتدى عباءة بنية اللون !!!

فابتسم وقال : بالفعل..هذا قد حدث !!!!!

والشيخ صالح فى محافظة الشرقية ، ونحن فى أسيوط، أى بيننا وبينه مئات الأميال !! فكيف أراه فى حلقة الذكر ؟ كيف ؟!!

ثم انقطعت عن هذا كله .. ليس لشيء سوى اننى كنت أريد أن أعرف شيئًا سمعت عنه كثيرًا ، كانت تجربة مثيرة جدًّا وغريبة أيضا كل الغرابة .

ولا تزال هذه الطرق مسار حديث وجدال كبيرين، فمن الناس من ينكرها جميعًا ، ومنهم من يقرها إقرارًا كبيرًا ومنهم من اتخذ رأيًا وسطًا .. وأنا لست فقيهًا لأدلى بدلوى فى هذا أو ذاك ، ولكن على ما رأيت بعينى وروحى خلال تلك الساعات التى

obeikan.com

قضيتها معهم أنه بالفعل هناك كرامات .. وأن ذكر الله وتلاوة أوراد وأدعية من القرءان والسنة هى من أبواب التقرب إلى الله ..

أما ما يؤخذ علي هذه الطرق هى المغالاة فى حب المريد لشيخه، والإلحاح فى الطلب والدعاء بإصابة النفحات والمكرمات، والسفر إلى الشيخ فى الزقازيق يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع !!

فهذا كله غير مبرر وغير مفهوم ... فالسفر لا تشد رحاله إلا لثلاث كما أخبرنا رسولنا وقدوتنا .

وإن الحبيب الوحيد والمبتغى الفريد هو الله الحميد المجيد .. وحب رسوله وآل بيته واجب .. ولكن لا يجب أن ينسينا الطريق .. والطريق هو طريق الله وحده ، ولا يحتاج إلى وساطة أو قربان سوى اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وعمرنا فى هذا الطريق قصير، فلا يجب أن يقضى إلا فى ذكر الله وحده، وحبه هو وحده؛ لأنه وحده هو المعبود.. وهو ملك الملوك .. وهو الخالق .. وما دونه مخلوق.

●●●

obeikan.com

مع المخابرات... كانت لنا مغامرات

كان لي صديق من إحدى قرى سوهاج، وصديقى هذا ذو صفات مميزة .. وما كان يميزه هو ذكاؤه وخفة دمه ومرحه وتقديسه للصداقة والعلاقات الاجتماعية أو هكذا كنت أظن!

وهو من عائلة ثرية ومعروفة.. معظم إخوته ليسوا أشقاء.. لم يكن على قدر من الثقافة..

وكان يعتمد على ذكائه وسرعة بديهته فى كل شيء.. و كان يصغرنى بعامين .. وبعام دراسى واحد فى نفس الكلية، وكان يحبنى ويثق فيّ كثيرًا، وكان يستشيرنى فى كل شيء فى حياته.

وكان معه اثنان آخران .. أحدهما ابن أخيه فى كلية الزراعة والآخر بلدياته فى نفس الكلية أيضًا..

وبلدياته هذا كان من الشخصيات النادرة .. كانوا يطلقون عليه لقب الغبى .. وكان هو نفسه يقول إنه أغبى مخلوق فى الوجود .. يقولها وهو يضحك على نفسه ضحكات هستيرية.. وكانت نحافته الشديدة وطول عنقه وأذناه المفلطحتان يزيدنا ضحكًا أثناء حديثه .. وقد كان صادقًا فى قوله إلى حد بعيد .. لكن الغريب أنه أحيانًا كان يقول آراءً حكيمة جدًّا!!

وحدث ذات مرة وكان ذلك فى شهر رمضان وكانت أيام الامتحانات قد اقتربت .. زارنى صديقى وأخبرنى أن شجارًا دار بينه وبين باقى زملائه فى السكن، وأنه سيأتى كل يوم لتناول وجبة الإفطار والسحور معى.. وأنه سيأتى معه أيضًا ابن أخيه وبلدياته وزميله «الغبى» ... وكان يعلم أننى لن أتأخر أبدًا عن تقديم يد المساعدة له .. وأنه يثق فى ذلك كثيرًا .. وأخبرته أنهم على الرحب والسعة فى أى وقت..

وكان يأتى قبل آذان المغرب بدقائق.. وبعد تناول وجبة الإفطار نخرج للمقهى الشهير (اليمامة) بجوار كوبرى الهلالى .. نلعب الشطرنج ونتناول مشروب السحلب والشعير المثلج والشيشة التفاح لساعة ثم نعود للمذاكرة ..

وبدأت الامتحانات.. وكانت أعصابنا على أشدها.. فما أصعبها من أيام.. غربة ومسئولية وتحضير الطعام وغسيل وكواء وتنظيف ومراجعة المواد والتحصيل.. وتصادف أن ذلك كله في شهر رمضان..

وذات ليلة قبل يوم امتحان لى، لم أخرج معهم.. وبعد أن قمت بتجهيز وجبة السحور انتظرتهم.. لكنهم لم يأتوا.. وطال انتظاري.. وجلست في الشرفة، وكانت فى الطابق الرابع أيضًا، ولكنها فى شارع نايلة خاتون بمقربة من الجامعة من الناحية الأخرى..

وبعد برهة.. أتى ابن أخيه وزميله الغبى.. ولم يأت هو.. وما إن دخلا حتى عاجلتهما بسؤالى: أين ثالثكما؟

فقالا: لا نعرف!!

- لا تعرفان! كيف؟

- لقد خرج من هنا وأخبرنا أنه سيذهب إلى مقهى عمر المختار لساعة .. لكنه لم يأت حتى الآن!!

- ألم تبحثا عنه عند أصدقائه وزملائه؟

- بحثنا دون جدوى!!

مرت نصف ساعة وسمعنا طرقًا شديدًا على الباب وذهبت أنا مسرعًا لأجده هو.. ودخل إلى الحجرة مسرعًا دونما يصافحنى أو ينطق ببنت شفة.. وسمعت صوتًا لصديق له يصعد درجات السلم مسرعًا وحينما اقترب منى قال لى:

- اعتنِ به جيدًا.. يبدو أن أمرًا جللاً قد حدث له... فقد وصل إلى المسكن للتو، ولم يشأ أن يرد على أي منا ويخبرنا ما خطبه!

ووعدته أننى سأفعل وانصرف هو ودخلت أنا الحجرة فوجدته قد دخل إلى الشرفة، ويجلس على حافتها وجسده كله ينتفض.. وخشيت عليه من السقوط .. وطلبت منه الدخول ويقص علينا ما الأمر.. ولماذا هذا الخوف كله الذى يبدو عليه؟

وجلس بجوارنا، ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة رغم تكرار ابن اخيه على سؤاله.. ماذا حدث؟

وكأنه فى عالم آخر أو فى اللاوعى.. أخذ يحملق فى سقف الحجرة تارة، وفى المائدة الموضوعة على الأرض وكأنه يريد أن ينسى شيئًا يخاف منه تارة أخرى!!

وفجأة وبحركة سريعة جدًّا جلس على المائدة وقال لنا:

- إن الوقت قد تأخر والفجر قد اقترب، وعلينا أن نتناول سحورنا الآن.. أليس كذلك؟!!

وجلسنا نتناول طعامنا.. جلس هو على يسارى وجلس صديقه الغبى ذو الرقبة الطويلة والأذنين المفلطحتين على يمينى، وابن أخيه فى مواجهتى..

ورجع هو يحملق فى سقف الحجرة تارة، وفى الطعام تارة أخرى.. وكانت يداه ترتعشان وجسده كله ينتفض!!

وبعد دقيقة أو دقيقتين تحدث قائلاً:

- لن أستطيع أن أخبركم بما حدث.. لقد طلبوا منى ذلك وأخبرونى أن أى شخص سيعلم بما حدث سوف يتم اغتياله فورًا!!

أما صديقه الغبى ذو الرقبة الطويلة والأذنين المفلطحتين، فقد فتح فاه وهو مملوء بالطعام وهو يجلس القرفصاء، ورفع

رقبته الطويلة إلى أعلى وثبت على هذا المنظر لدقيقتين، وكأنه تمثال فى متحف الشمع!!

وبادرته سائلاً:

- من هم؟

فقال لى:

- لا أستطيع أن أجيب.. فإجابتى فيها تضحية بحياتكم!!

ازداد قلقنا وحيرتنا، ولم نستطع أن نكمل طعامنا.. فما حدث أفقدنا الإحساس بأى شيء سوى هذا الغموض الذى اكتنف صديقنا الليلة..!

ولكن صديقى لم يقو على الصمت طويلاً، فنظر إلينا قائلاً:

- إننى لا أستطيع تحمل هذا وحدى، ولا بد أن أتكلم.

- إذًا تحدث..

- قبل أن أتحدث لا بد أن يعدنى كل واحد منكم بألا يفتح فمه بكلمة واحدة مع أى مخلوق على وجه الأرض...

نظرنا إليه أنا وابن أخيه وقلنا:

- بكل تأكيد... أما صديقه الغبى ذو الرقبة الطويلة والأذنين المفلطحتين فكان لا يزال يفتح فمه، وعيناه مفتوحتان قلما أغمضهما.. ونظر إليه قائلاً:

- وأنت بالذات أيها الغبى لا تتحدث بشيء مما ستسمعه الآن.. أريدك أن تسمع وتفهم كلامى لمرة واحدة فى حياتك، ويا ليتها تكون هذه هي المرة...

واستطرد هو قائلاً:

بعد أن خرجت من هنا، توجهت إلى مقهى عمر الخيام، وبعد دقائق وقفت سيارة فارهة سوداء أمام المقهى، وخرج منها رجلان طويلان .. وسألنى أحدهما:

- أنت فلان؟

وأجبته: نعم...

ثم طلبا منى أن أستقل السيارة معهما، والغريب أنى فعلت دون أن أسألهما من أنتما وإلى أين سنذهب.. بعد برهة قاما بتعصيب عيني، فلم أر شيئًا... وبعد نحو ساعة تقريبًا أخرجانى من السيارة واقتادانى ولم أعرف أين أنا؟!!

دخلنا مبنى ثم نزلنا درجات سلم ثم صعدنا ثانية، ونزلنا مرة أخرى فى طرقات يبدو أنها ضيقة.. وفى نهاية المطاف أدخلونى حجرة وأجلسونى على مقعد، وكان في مواجهتى أكثر من رجل، أظنهم أربعة أو خمسة... بدأ واحد منهم بسرد تفاصيل حياتى وعائلتى وأصدقائى وكل شيء عنى!!

وبعد نقاش معه.. تحدث آخر إليّ قائلاً:

- نريد أن تعمل معنا لمصلحة الوطن!!

فرددت عليه فى استغراب: أنا؟!!

فقال لى: نعم أنت .. فسوف .....

فأجبته: لا .. لن أترك أهلى أبدًا وأذهب إلى أى مكان...

فرد عليّ قائلاً:

- لا تجب الآن.. سنعطيك فرصة للتفكير.. لكن إياك ثم إياك أن تفتح فمك لأى مخلوق على وجه الأرض بما دار هنا أو الموضوع برمته مع أى أحد.. إن ذلك سيكلفك حياتك وحياة من ستخبره بذلك....

ثم نظر لى صديقى موجهًا الكلام لى:

وخصوصًا أنت .. إنه أخبرنى أنه يعلم مدى ثقتى وحبى لك، وقال إنه يعرف عنك كل شيء، وإنه لا خوف منك أبدًا، ولكن على ألا أخبرك بشيء إطلاقًا وأن أستمر بصداقتى معك...

بعد أن فرغ من هذا الحديث شعر هو أنه استراح كثيرًا من الحمل الملقى على ظهره، وأننا نحمل معه مشكلته وهمه..

وأدركنا جميعا أننا فعلاً فى خطر، وعلينا أن نواجه الحدث فى هذا التوقيت الخطير.. فنحن فى المدينة غرباء.. وفي أيام

امتحانات نحتاج إلى قمة التركيز والصفاء الذهنى.

ساد الصمت المطبق الحجرة للحظات.... وشعرت أنا بمسئولية تجاه الموقف.. فأنا أكبرهم سنًّا.. والطلاب مثل المجندين بالجيش.. من سبقك بيوم فهو يسبقك فى الأقدمية.. وكان علىّ أن ألتقف دفة القيادة التى تهوى إلى يدى دون إرادة منى.. والأوقات العصيبة تمنح الإنسان التدرب على مواجهة نوائب الدهر ومشاكل الحياة.

اعتدلت فى جلستى ونظرت إليهم قائلاً:

ـ اسمعوا ما أقوله جيدًا:

إن الأمر يبدو خطير جدًّا، ونحن ما زلنا طلابًا أصحاب خبرة قليلة فى الحياة لمواجهة مثل هذه المخاطر، ونحن هنا من أجل شيء واحد وهو الدراسة والرجوع إلى أهلنا سالمين فى المقام الأول.. إننا هنا غرباء فى المدينة، حيث لا قريب ولا أحد يهمه أمرنا.. ولا يوجد معنا أحد إلا الله وكفى به وكيلاً.. وأنا على يقين أننا سنعبر هذه الأزمة بسلام، إن الله لن يضيعنا ومن يتوكل عليه فهو حسبه.. ولا تنسوا أن أهلنا جميعًا يدعون لنا بالنجاح والعودة إليهم سالمين... علينا فقط أن نقوم بما يجب القيام به والأخذ بالأسباب ثم ندع الأمر كله لله..

نظر لى ابن أخيه سائلاً:

وما هو الشيء الذى يجب أن نفعله الآن؟

فجاوبته:

- يجب علينا توخى الحيطة والحذر.. إنهم بلا شك يعرفون الأماكن التى نتردد عليها وسيتم مراقبتنا!!!

علينا أن نتصرف بتلقائية وبصورة طبيعية ونحيا حياتنا العادية..

كان وقع كلامى شديداً بعض الشيء، ولكن لم يكن هناك بد من قوله..

ونظر صديقى إليهم قائلاً:

- إن ما يقوله صحيح تمامًا .. علينا أن نتبع كلامه فهو أكثرنا خبرة فى الحياة، ولا بد من أن يتولى الأمر رجل واحد يتبعه الباقون جميعًا فى سمع وطاعة، فأنا فقدت التركيز تمامًا ... وأومأ ابن اخيه بالموافقة..

ونظر إلى صديقه الغبى ذي الرقبة الطويلة والأذنين المفلطحتين قائلاً:

لا بد أن تعى ما قلناه جيداً، وعليك أن تكف عن تصرفاتك الحمقاء ولا تفكر فى شيء إطلاقًا.. عليك فقط أن تنفذ ما يقال لك فقط.

أما صديقه الغبى ذو الرقبة الطويلة والأذنين المفلطحتين فلم يتحرك له ساكن، وكأنه لم يسمع أو يفهم شيئًا!

ثم خرجت أنا للشرفة لإحضار المنشفة، وإذا بى أرى رجلاً يقف على ناصية الشارع ينظر إلى شرفتى.. وأدركت تمامًا أنه منهم.. فقد بدأ ما توقعته يحدث بالفعل!!!

ولأول مرة أذق طعم الخوف والرعب، وعلى الرغم من هذا الرعب الذى انتابنى فإنه كان علىّ أن أتصرف كقائد وألا أظهر أى شيء من القلق أو الخوف...

همّ الجميع بالانصراف بعد آذان الفجر..

ووقف صديقى على باب الغرفة وقال لى:

لا أعرف كيف أشكرك.. أو ماذا كان سيحدث لولا وقوفك بجوارى؟ فقد أقحمتك فى مشكلتى دون أى داع أو ذنب لك...

فرددت عليه قائلاً:

- لا تقل هذا يا صديقى العزيز.. وإذا لم تجدنى فى موقف مثل هذا فلا معنى للصداقة أبدًا، وهذا واجب لا أستحق الشكر عليه... عليك أن تذهب الآن وتنال قسطًا من النوم.. يبدو عليك الإرهاق الشديد لما رأيته هذه الليلة..

- نعم.. سأحاول... وأنت؟

لديّ امتحان ولن أنام حتى رجوعى من الجامعة.. لا تشغل نفسك بى.. سأتدبر أمرى... وسأنتظرك على الإفطار إن شاء الله..

- فى أمان الله.

فى المساء وبعد الانتهاء من وجبة الإفطار، كان علينا أن نمارس حياتنا العادية، وما إن خرجنا إلى الشارع حتى رأيته.. إنه نفس الشخص الذى رأيته ينظر إلى الشرفة فجرًا!!

وتملكنى القلق، وخشيت أن ينطق أحد منهم بكلمة أو يلمح للموضوع الذى قلب حياتنا رأسًا على عقب... فأسرعت الخطى ثم توقفت فجأة ونظرت لأصدقائى بحجة الحصول على ثقاب لأشعل سيجارة، ونظرت من بين أكتافهم إلى ما وراءهم، فوجدت الرجل يتتبعنا بالفعل، وحينما اقترب منى صديقى وهو يشعل عود الثقاب همست فى أذنه أننا مراقبون.. وعلينا أن نتوخى الحذر ونتصرف بصورة طبيعية..

وصديقى كان يمتلك سرعة بديهة ورد فعل، ودلفنا إلى شارع يسرى راغب متوجهين إلى المقهى الذى نرتاده دائمًا.. وجلسنا نلعب الشطرنج أنا وصديقى وبجوارنا ابن أخيه يتابع اللعب .. أما

صديقنا الغبى ذو الرقبة الطويلة والأذنين المفلطحتين، فقد آثر أن يوجه كرسيه إلى ناحية الشارع ليشاهد المارة، وكانت عيناه تبدوان كأنهما تجاهدان النوم جهادًا، وكان هو أيضا يدمن التدخين إلى حد بعيد، ومن المحتمل أن السيجارة هى الشيء الوحيد الذى يجعله يقفل فمه بعض الوقت، وهو يضم شفتيه الدقيقتين عليها ويسحب نفسًا عميقًا من الدخان، وسرعان ما تدمع عيناه كأنه أول مرة يدخن.

بعد نحو ساعة، لاحظت أن هناك رجلاً آخر يجلس داخل المقهى ينظر إلينا كثيرًا!!!

لم أجد أى تفسير أو مبرر حينها على كل هذه المراقبة!! فنحن لسنا بالخطورة بمكان لهذا كله.

ولاحظ صديقى أثناء اللعب أن عينيّ ليستا ثابتتين على طاولة اللعب، ورفع رأسه ونظر لى.. ونظرت له.. وفهم ما أقصده تمامًا.. فاعتدل في جلسته فى انتظار ما سأفعله أنا..

وأشرت إلى النادل ودفعنا الحساب وغادرنا..

وأردت أن أتأكد من هذا الشخص، هل فعلاً يراقبنا فى كل مكان .. فقد كان وجهه مميزًا بالسمار والأنف المدبب، والجسد الذى بدا ممشوقًا ومنفتح الصدر ومفتول العضلات..

كان بائع الجرائد والكتب ليس بعيدًا عن المقهى، فوقفت عنده كأننى أتفقد الجديد من الكتب وسط زحام الواقفين على رأس البائع، ونظرت إلى ناحية المقهى فوجدت الرجل خارجًا منها ويقترب منا!

أردت أن أدع حدًّا لكل هذا الذى يحدث، ولكننى لم أجد أى حل سوى التظاهر بأننا لا نعرف شيئًا، وأن تمر الأيام القليلة المتبقية على خير، وأن تنتهى أيام الامتحان على خير، أكثر اللحظات قلقًا كانت تمر عليّ هى بعد خروجى من الامتحان.. فقد كنت أتوهم أنهم سيلقون القبض علىّ داخل الحرم الجامعى.. فذلك أفضل مكان يقتادونى منه، دون أن يعلم بذلك أحد من أصدقائى.

ولا أعرف تفسيرًا لهذا المعتقد الذى كان يراود فكرى حينئذ!

اقترب صديقى من انتهاء امتحاناته ومعها ستنتهى معاناته.

لكن ما حدث معه منذ أيام حدث معه ثانية، لكن هذه المرة لم يتأخر فى الرجوع، فقد كان الحديث معهم مقتضبًا وقصيرًا، وأرادوا أن يحصلوا على موافقته ولكن دون جدوى، وأصر هو على موقفه.. وأصروا هم أيضًا!

جلس معى صديقى هذه المرة وحده.. وقال:

- لا أدرى ماذا أفعل؟! وهل عليّ أن أخبر أهلى عما حدث؟

وأهله أصحاب نفوذ فى قريتهم، وأحد أعمامه عضو مجلس شورى.. وغيرهم كثيرون.. ولهم معارف بالقاهرة ومن الممكن أن يحموه..

ولما وجدته حائرًا وددت أن أطمئنه فقلت له:

- لا داعى للقلق صديقى العزيز.. إن هذه الجهات الأمنية لن تؤذيك أبدًا.. فهم يعملون لحماية الوطن وبكل تأكيد أفعالهم هى مصلحة عليا للبلاد، ولكننا لا نعرف.

وبعد أيام .. أنهى هو وابن أخيه وصديقه الغبى ذو الرقبة الطويلة والأذنين المفلطحتين امتحانهم وغادروا أسيوط متجهين لبلدهم..

أما أنا فقد تبقى يومان على انتهاء امتحان نصف العام الدراسى الأول من الفرقة الثالثة..

وما كان يدور فى معتقدى من فكرة اعتقالي بعد خروجى من مخيم الامتحان قد وصلت لذروتها.. فلا بد أنهم يريدون أن يتأكدوا ما إذا كان صديقى أخبرنى بقصته أم لا قبل مغادرة أسيوط ورجوعى لقريتى!

وانتابنى رعب شديد حتى أننى نسيت ليلتها أن أتناول وجبة السحور!!

وبعد خروجى من الامتحان هرعت إلى السكن، وجهزت حقيبتى فى عجالة، وتوجهت لموقف السيارت المتجهة لمدينة نجع حمادى التى وصلت إليها بسلامة الله بعد آذان المغرب بنحو ساعة!

أما ما حدث فى نجع حمادى فلم يكن أقل غرابة مما حدث فى أسيوط ..

بعد نزولى من السيارة.. ولا أكاد أصدق أن هذا الكابوس قد تخلصت منه وأخيرًا سأرجع إلى أهلى وبيتى سالمًا، لم أجد سيارات متجهة لمركز دشنا!! وكان نحو عشرة من الركاب ينتظرون مثلى.. ولكن الوقت يمر دون جدوى..

وفجأه توقفت سيارة ميكروباص تحمل لوحات معدنية كُتب عليها أجرة الأقصر.. والسيارة يبدو عليها أنها جديدة تمامًا كأنها خرجت من مصنعها للتو واللحظة، أما سائقها فكان رجلاً أسود البشرة ضخم الجثة يرتدى جلبابًا بنى اللون وعمامة كبيرة بيضاء.

وقد أشار إليه الركاب عما إذا كان متجهًا لمركز دشنا ليقلهم معه فأشار إليهم بالسلب..

أما العجيب أنه أشار لى أنا!!!

وكنت متعبًا جدًّا.. فلم أذق طعم النوم منذ أيام، ولم أتناول سحورى ولا وجبة الإفطار... فجاهدت نفسى فى حمل الحقيبة الثقيلة فى يدى، وما إن اقتربت منه قال لى:

- دشنا؟!

فقلت له فى استغراب:

- نعم

فقال:

- اصعد

وصعدت إلى السيارة وجلست فى المقعد الأمامى بجواره ووضعت الحقيبة جوارى...

وتعجبت كثيرًا.. لماذا لم يقم بملء سيارته من الركاب الكثيرين، طالما أنه ذاهب فى نفس الوجهة؟

ولماذا اختارنى أنا بالذات لأستقل السيارة؟!

لم أجد أي إجابة قط على أسئلتي هذه التى دارت فى رأسى المجهد...

هل هو يتبعهم؟ هل سيذهب بى كما ذهبوا بصديقى لمكان لا أعرفه؟

ومضى بسيارته يشق العباب كأنه مرتبط بتوقيت معين!

obeikan.com

اقتربت السيارة من كمين شرطة (الشعانية)... الذى يقع فى منتصف الطريق ما بين مدينتى ونجع حمادى.. وكانت هناك منضدة كبيرة أمام حجرة الكمين يلتف عليها أربع من الرتب الكبيرة، والكل يحمل فى يده جهاز لاسلكى.. وما إن اقترب السائق من الكمين ومن هؤلاء الضباط حتى توقف!!!

وبدا فى ذهنى أن الدهشة والعجب يلاحقانى فى كل مكان وزمان، ولا أعرف أى تفسير لما يحدث لى..

لماذا توقف السائق فى الكمين؟ على الرغم من أن ذلك ممنوع قانونًا إلا إذا استوقفه ضابط أو رجل أمن ليسأله عن هويته وأوراق سيارته.. إذًا لماذا وقف وبكل هذه الثقة؟

وقام أحد الضباط وكان رتبة عليا على ما يبدو من سنه وزيه الميرى، وفتح باب سيارة الميكروباص وهمّ بالصعود وهممت أنا بالخروج من مقعدى الأمامى ليجلس هو فى المقدمة احترامًا منى لرتبته وسنه.. لكن السائق رفض وقال لى اجلس مكانك!!

وعلى طول الطريق لم يصمت جهاز اللاسلكى أبدًا عن إرسال واستقبال التعليمات والأوامر التى لا يفهمها أحد سواهم!!!

وأيقنت بالفعل أن شيئًا ما سيحدث، وأن السائق سيرفض الوقوف فى مركز دشنا لنزولى من السيارة....

ودخلت السيارة المدينة ونظرت إلى السائق وطلبت منه الوقوف لكى أنزل من السيارة..

توقف السائق ونزلت من السيارة كما طلبت منه!!!!

حينما وصلت إلى منزلى كنت أشعر أننى صحوت من كابوس عميق للتو واللحظة...

وتناولت طعامى وتوجهت إلى فراشى...

حاولت أن أعطى نفسى وعقلى بضع دقائق لأفكر بكل هذه الأحداث العجيبة.. ولكن لم أجد أية أعصاب تحتمل التفكير أو بحث مقدمات لكى أصل إلى نتائج. فالمقدمات مبهمة وغير تقليدية، فلا بد من أن تكون النتائج مبهمة أيضًا.

بعد رجوعى لأسيوط مرة ثانية لم أقابل صديقى هذا، فقد قام بتغيير مسكنه وتغيير حياته كلية على ما يبدو...

لا أعلم سببًا واحدًا يجعله ينسى الأيام التى قضيناها سويًا على حلوها ومرها!

وانقطعت أخباره ولم أره ثانية حتى يومنا هذا!!!

●●●

الشخص الوحيد الذى قابلته بعد ذلك مرة واحدة هو صديقه الغبى ذو الرقبة الطويلة والأذنين المفلطحتين ... وحينما قابلته مصادفة فى الجامعة صافحنى .. وضحك هو لتذكره الأيام الخوالى، وضحكت أنا من تذكرى لغبائه الذى يعتز به كثيرًا.

وسألته عن صديقنا ومشكلته فقال لى:

إن إخوته أجروا اتصالات بمسئولين كبار فى القاهرة لكى يصرفوهم عنه، ويسمحوا له أن يكمل دراسته، وقد تركوه بالفعل وهو الآن يعيش حياة عادية جدًّا! لكن هناك معلومة أود أن تصححها عندك..

فسألت دهشًا:

- ماذا تقصد؟

فأجاب:

- إن الجهة التى كانت تريد تجنيده ليست المخابرات العامة المصرية!!!

فعاودت أسأله فى استغراب مرة ثانية:

- كيف؟

فأجابنى:

- إنها أمن الدولة!!

ـ أمن الدولة؟!!!

إذًا لماذا أخبروه أنهم مخابرات عامة؟

فأجابنى وهو يضحك:

ـ هل تعتقد أننى أستطيع أن أفهم شيئًا فى هذا العالم من حولى؟

وقبل أن أتركه سألته:

ـ هل ما زلت تفتخر بأنك أغبى رجل فى العالم؟

ضحك ضحكة هستيرية وتمايل بجسده النحيف يمينًا ويسارًا وأمامًا وخلفًا.. وبدت رقبته أكثر طولاً ودمعت عيناه من شدة الضحك على نفسه، ثم قال وهو يدخن سيجارته:

نعم.. إننى فخور جدًّا بهذه الصفة.. إنها تجعلنى مميزًا على الأقل عن باقى البشر.. ومن يعلم.. ربما أنا الشخص الوحيد الذكى فى هذا العالم، وكل الناس أغبياء.. هههههههههه!!!!

فقلت له ضاحكًا:

كنت أخشى عليك من تراجع نسبة غبائك.. ولكن بكلامك هذا أيقنت أنك فعلاً أغبى رجل فى العالم، وذو رقبة طويلة وأذنين مفلطحتين...

●●●

obeikan.com

صديقى عمر بن الخطاب!

وددت لو أننى أعرف أن أصفه بكلمات، ولكنى لا أستطيع، فصديقى هذا رجل من نوع فريد ونادر جدًّا، فهو رجل اجتمعت فيه الشيم والصفات النبيلة ودماثة الخلق كلها، رجل تستطيع أن تقول إنه ولي من أولياء الله الصالحين.. ولكن سرعان ما تجده قد فاق هذا الوصف.. ففى حياته من الأعمال ما يفوق كل ولاية وكل طريق.

فهو فى عمله الجليل، المحفوف بالمخاطر، أشجع ما يكون الفارس، وأشد ما يكون على الظالم، وأرفق ما يكون على المظلوم أو البائس الفقير..

إذا نظرت فى وجهه تعرف فيه نضرة النعيم، نعيم الدنيا والآخرة، ولم لا؟ فوجهه الأبيض الذى يخالطه حمرة نورانية قد سجد كثيرًا وأطال السجود.. وقام الليل والناس نيام، فأنار الله وجهه فى الصباح...

وإذا قرأ القرآن فكأنك تسمعه من رجل نال الحظ الأوفر من العلم فى قراءة القرآن على يد أحد العلماء الكبار.

بل زاد على الحفظ تدبر آيات الكتاب الحكيم، وراح يقرأ ويدور فى خاطره وينطلق لسانه بتفسير آيات الله الكريمة كأن إلهامًا من عند الله قد استقر في قلبه وعقله.

أما من يشبهه فى ذلك النور، وهذا العطاء وهذا الحفظ والفهم لكتاب الله هو زوجته وابنته، فكلتاهما مثله خلقًا وأدبًا وعلمًا لدنيًّا من عند رب السموات والأرض فالق الإصباح.

وهذا كله فى كفة، أما الناحية الأخرى فهى أشد تميزًا وأكبر إجلالاً وأعظم أجرًا عند الله ومثلاً، وما أروعه من مثل فى إتقان العمل وتقديسه.

فهو لا يهتم إلا بشيئين اثنين فى حياته: أما الأول فهو الصلاة فى وقتها فى المسجد، وما يتبعها من تلاوة القرآن الكريم أناء الليل وأطراف النهار.

والشيء الثانى هو التفانى فى العمل تفانيًا، لم أره فى حياتى ولم أسمع عنه قط.

فهو لا يكون فى عمله فى وقت العمل الرسمي فحسب.. بل كل وقته للعمل، وهو فى مجال عمله لا يفوقه قرين ولا ينازعه فى تفوقه منازع، بل تستطيع أن تقول إنه مرجع تستطيع أن ترجع إليه، ودار للفتوى تستطيع أن تستفتيه فى أى شيء خاص بعمله الجليل.

إنه صديقى العزيز سيادة العميد/ مصطفى يس.. مأمور مركز شرطة دشنا سابقًا ومأمور مركز الخليفة بالقاهرة حاليًا..

فيما بعد والذى جعلنى متيقنًا من ورع هذا الرجل وعظمته وهيبته التى يستمدها من الله العلى القدير وحده، هو ما جرى من أحداث إبان الثورة المصرية فى الخامس والعشرين من يناير، أذكر تلك الأيام جيدًا بكل تأكيد فهى منا ليست ببعيد..

أذكر تلك اللحظة التى أعقبت سقوط النظام فى ٢٥ يناير وانهيار الأمن، واقتحام مراكز الشرطة وإحراق الكثير منها وبمن فيها من ضباط وجنود.

ونظرت إلى القرية وإلى البلاد من حولى فوجدت الجميع فى ديارهم جاثمين كأن صيحة أو ريحًا صرصرًا عاتية قد ألمت بالناس! وما دار بخاطرى مباشرة هو هذا الرجل النبيل، وخشيت من أن يحدث فى مركز شرطة دشنا ما حدث بأمثاله فى أماكن أخرى، وتحدثت إليه عبر الهاتف ووجدته يرد عليّ بنبرة تملؤها الطمأنينة والثقة والقوة، لكن قلبى لم يطمئن، فتوجهت إليه مباشرة، والمسافة بينى وبينه هى نصف ساعة كاملة..

وذهبت فلم أجد أحدًا فى مبنى المركز، وصعدت مباشرة إلى الطابق العلوى حيث مكتبه، وكان باب مكتبه مفتوحًا كعادته دائمًا، ورأيته جالسًا على مكتبه بزيه الميرى يمسك بقلمه وأمامه أوراقه، وكأن شيئًا لم يحدث، وكان هناك ضابط ليس من قوة المركز يجلس معه، وما إن رآنى إلا وشعر ببعض القلق، فمن هو هذا

الرجل الذى يرتدى جلبابًا ويدخل على مكتب المأمور دون تردد؟! وشعر المأمور أن ضيفه قد أصابه شيء من القلق فراح فى أدب وسرعة بديهة يعرفنى إليه، وأخبره أنى صديق عزيز عليه، وشعر الضابط الضيف بشيء من الراحة والاطمئنان.

أما العميد مصطفى يس فلم يتغير قيد أنملة عن ذى قبل؛ إنه يقدس عمله وواجبه، ولم يجرؤ ضابط فى ديوان المركز فى تلك الأيام على النزول للشارع سواه، فكنا نذهب للصلاة فى المسجد وكان يخرج هو دون حراسة، ومن أين تأتى الحراسة.. فقوة المركز كلها عبارة عن مأمور المركز فقط، فلم يكن فى أرض المعركة سواه.. أسد كما اعتاد أن يكون دائمًا، وكان يتصدى لأى محاولة لزعزعة الأمن داخل المدينة أو قراها، وكان على الدوام يتحدث إلى ضباط النقط بالقرى وحثهم على القيام بواجبهم المقدس فى كل الظروف، وأن أمن المواطنين هو الواجب الأول لقوات الشرطة.

كان وما زال هذا العميد الفريد يحظى بحب وتقدير جميع أبناء مدينتى وقراها وكل من يعرفه، وكانوا يثقون جيدًا فى نزاهته وأمانته وقربه من الله من ناحية، ومن ناحية أخرى كانوا يعلمون جيدًا أنه لا يخاف أحدًا إلا الله، وأنه سيطبق القانون على أى أحد مهما كان، ولا يزال الناس جميعًا هنا فى دشنا يذكرونه ويدعون الله أن يرزقهم برجل عظيم مثله.

وهو يجيد فن التعامل مع مختلف الناس، فهو يحترم من يتمتعون بسمعة طيبة وكبار السن الوقورين ويعطف على البسطاء من الناس.

كنت أنهى عملى بالمحكمة قبل آذان الظهر وأتوجه إليه، وكنت أجده فى بهو المركز فى الدور الأرضى، يعطى تعليماته لهذا وذاك من الضباط صغار السن والرتب، ناصحًا إياهم بإتقان العمل وإعطائهم الخبرة حينًا، وحينًا آخر يقوم بقضاء حوائج الناس فتشعر أنك ترى قاضي القضاة فى عصور الخلفاء الراشدين!

ثم يصطحبنى إلى المسجد ونرجع وقد تمّ القيام بالمهام الأساسية من عرض واستقبال وإرسال الترحيلات والانتهاء من المحاضر واستلام وتوزيع الجراية، وخلاف ذلك من أعمال المركز.

فنصعد إلى الطابق الثانى حيث مكتبه، ولا أكاد استقر على المقعد حتى تأتى أصناف الشراب الساخن والبارد، وهو شديد الكرم، حتى يجعلك فى نفسك دون أن تشعر تردد المثل العربى القديم: أكرم من حاتم الطائى!

وأنا عادة لا أحب أن أشرب شيئًا عند أحد، وإذا أجبرتنى الرسميات على ذلك وجدت نفسى لا أرتشف منها سوى القليل، أما عنده فلا، فأنا ما زلت حتى هذه اللحظة أستطيع أن أشرب عنده أكثر صنف من الأصناف التي أمامى فى وقت واحد! لا

لسبب إلا أننى أعلم أن ماله حلال، بل فاق الحلال وأصبح فيه شيء كثير من البركة، وأن هذا الكرم نابع من قلبه، ولك أن تتخيل قلبًا لا يكف عن ذكر الله فى صدر يحفظ القرآن الكريم..

ثم نبدأ الحديث الذى كثيرًا ما كان عن القرآن الكريم، وكثيرًا أيضًا كنا نجلس نتحدث فى آية من آيات القرآن من بعد صلاة الظهر، ولا يقطع حديثنا سوى آذان العصر! وكثيرًا ما كان يجرى اتصالاً هاتفيًّا بزوجته يسألها عن آية تتحدث عن موضع معين، وتجيئه الإجابة مباشرة دون تفكير وتخبره بالسورة والآية الكريمة ثم موضع الآية من الصفحة فى المصحف الشريف!

ونذهب ونصلى العصر بوضوء الظهر.

وكان ذلك يتكرر كثيرًا.

والعام الماضى سمع أهل دشنا بنبأ مغادرة المأمور المركز، ولم أر رجلاً حزن عليه الجميع لمغادرته مدينتنا مثل هذا الرجل، وكثيرًا ما استوقفنى الناس يسألوننى عن صحة هذا الخبر، وهم يتمنون أن يكون الخبر كاذبًا، وأنه سيظل المأمور معنا عامًا آخر أو ربما رضى الله علينا فيمد العام إلى أعوام، ولكنى للأسف كنت أعلم أنه سيغادر بالفعل، وأجيبهم بالإيجاب، فتعرف فى وجوههم الحزن، ثم يطلبون منى وهم يعلمون ما بينى وبينه من ود أن أطلب منه أن يظل معنا عامًا آخر؛ لأن المركز يحتاج لمثل هذا الرجل العظيم الذى لم يدخله يومًا ما رجل مثله.

وحينما اقترب وقت سفره وعودته للقاهرة ووجدنى حزينًا مهمومًا لهذا الفراق، نظر لى قائلاً: أنت بالذات لا يجب عليك أن تتأثر برحيلى، إنك تذهب مرة أو مرتين للقاهرة كل شهر، وبكل تأكيد ستأتى ونتقابل هناك..

وقد فعلت ولا أزال..

●●●

إن مصر غنية بالعظماء في شتى المجالات ، لكننا اعتدنا دائما بثقافة خاطئة ان ننظر الى النماذج السيئة ولا نلتفت الى الرجال العظماء الذين يفنون حياتهم في عمل متقن وخلق كريم ، يحضر ذاكرتى الآن على سبيل المثال لا الحصر شخصية من اعظم الشخصيات التى من الممكن ان تصادفها في حياتك ادبا وعلما وخلقا ...

ذات مرة خرجت من مكتب احد وكلاء نيابة دشنا الجزئية لاسأل الحارس عن اسم هذا الوكيل الجديد الذى يتميز بهذا الأدب الجم والاحترام الكبير والدقة في العمل فأخبرنى انه معالى المستشار محمد بك صفوت شاكر ووالده اللواء صفوت شاكر مدير الترحيلات بمديرية امن قنا (حينذاك) .. وعزمت ان اقابل والده .. وذات مرة سألت ضابط

الترحيلات بمحكمة قنا العميد نادر اباديـر عن سيادة اللواء صفوت شاكر واجابنى انه موجود داخل المكتب ، وطلبت مقابلته واخبرته اننى جئت خصيصا لأصافحه واشكره على حسن تربيته العظيمه لأبنه وكيل النائب العام ورد علىٌ بعد ان وقف وربت على كتفى انه وابنه اناس عاديين جدا وان اول وصية اوصاها لأبنه في عمله ان يحسن معاملة الاساتذة المحامين ..... رجال عظام وقامات عالية من العلم والعمل ومكارم الاخلاق والنزاهة والتواضع ... بهم وبامثالهم من شرفاء الوطن ستنهض مصر وتبقى دائما منارة العلم والحضارة .

●●●

obeikan.com

دموع على وجه القمر
(١)

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، وفى أحد المنازل القديمة من بداية منطقة عماد الدين كنت أستطيع أن أراه من الطابق التاسع من الفندق، الذى أرتاده دائمًا بمقربة من مسجد الفتح بالقاهرة، كانت هى تحتضن ابنتها ذات العام ونصف، وكانت تعمل جاهدة ألا تنزل دموعها على وجه رضيعتها، فالدموع لا تنقطع عن جريانها على وجهها الشاحب.

كانت تشعر أنها أكثر النساء بؤسًا على وجه الأرض، وكان ما تتعرض له من نوائب الدهر يجعلها فى مقدمة البائسات قاطبة..

منذ ثلاث سنوات تزوجت برجل فى نفس الشارع الذى تسكن فيه، وبعد تسعة أشهر من زواجها صعدت روح زوجها لبارئها، كان يعمل حمالاً للبضائع بشارع عبد العزيز التجارى وتهاوت على جسده النحيل بعض البضائع التى كان يسوقوها أمامه على عربة حديدية ذات عجلتين، ولكن الحمل كان كثيرًا وأكبر من المطلوب، فمال عليه وسط زحام الشارع فمات فى الحال، وعادت إلى منزلها لتعيش مع والدتها فى هذا المنزل القديم، لكنها لم تعد كما خرجت، فقد كان فى رحمها ثمرة زواجها الذى لم تهنأ به سوى عدة أشهر، ووضعتها بعد أسابيع أنثى..

كان أخوها الوحيد يسكن فى الطابق الأرضى مع زوجته.. وما هى إلا أشهر قليلة إلا وتوفيت والدتها، فأيقنت أن الدنيا قد أدبرت عنها وأظلمت تمامًا.. إنها بفقدانها أمها قد فقدت كل شيء..

أما هذا الإحساس فقد كان نابعًا من سوء خلق شقيقها الوحيد وزوجته الشيطانة..

وما هى إلا أيام قليلة بعد وفاة أمها إلا ووجدت زوجة أخيها تقتحم حياتها، وتبلغها أنها ستعيش هى وأخوها معها.. وقد حدث..

زوجة أخيها هذه هى أبعد ما تكون من الإنسانية بمكان.. فهى تمتلك جسدًا بشعًا دميمًا.. لن ترى أقبح منه.. ولا أعتقد أن من يراها سيتمهل، ولو للحظة فى أن يفر من أمامها كما يفر الإنسان من قسورة!

أجمع الجيران كلهم أن أخاها لا بد وأنه قد فعل فى حياته كبيرة من الكبائر، التى لا يكفر عنها شيئًا فى الدنيا إلا بزواجه من هذه المخلوقة التى تشمئز منها كل نفس، وتأبى منظرها أى عين، وأن هذا التكفير سيمتد معه حتى يوم الحساب، فما رآه من خلقها وخلقتها كفيلاً بأن يكفيه من شر نار الجحيم! ولما لا وزوجته هى الجحيم نفسه!

أما أخوها فلا يقل عن زوجته سوءًا، فهو قد أخذت به أصناف عدة من صنوف المواد المخدرة مأخذًا جعلته فاقدًا لعقله ووعيه أكثر الوقت هاربًا تارة من بشاعة زوجته، ومن قسوة حميه المعلم متولى.. والمعلم متولى هذا هو من يستأجر المقهى أسفل المنزل الذى يقسمه إلى قسمين، الأول مسكنًا لابنته والآخر المقهى الذى يأخذ معه ناصية الشارع، وكان أخوها مجبرًا على المكوث للحظات أمام آنية الزيت التى تقدح على نار مشتعلة طوال النار الممتلئة بعجين الفول والباذنجان، فقد أصر المعلم متولى على إلحاق هذه الآنية الغارقة فى الزيت وبيع الطعمية والباذنجان إلى المقهى..

والمعلم متولى لم يكن صاحب المقهى فحسب.. ولكنه كان من أشهر من يبيع المواد المخدرة فى المنطقة كلها.. وما المقهى إلا ستار لتجارته المحرمة، وكان زوج ابنته هذا يقوم بعملية الشراء للمواد المخدرة بصنوفها وأشكالها المختلفة من أحد التجار بمنطقة زينهم، لكن المكسب كله في يد المعلم وحده، وهو لا يقل بشاعة ولا سوءًا عن ابنته، كان صوته الأجش يفزع القلب، فإذا تحدث كأنك تسمع صوتًا لحيوان ضخم مخيف يأتى صوته من بين ظلال أشجار الغابة العالية فى إحدى غابات الأساطير اليونانية القديمة!.. وجهه كبير متجهم، وجسده الضخم غير المتناسق مدعاة للغرابة،

فحينما تراه يجلس على المقعد الخشبي فى مقدمة المقهى وأمامه منضدة وكرش كبير يخرج أمامه بعدة أشبار، تتعجب كل العجب على مقدرة هذا المقعد الخشبى الصغير أن يحتمل هذا الوحش الضخم!

وكثرت الأقاويل عن أصل هذا الرجل السيئ.. البعض يقول إنه نزح من الصعيد، وكانت مهنته هى قاتل أجير وجاء هاربًا وغيّر اسمه ومهنته، والبعض الآخر يقول إنه كان يسكن هو وابنته هذه أسفل جبل المقطم، وكان يقوم بتربية الخنازير، ولما حدث الزلزال وما تركه من أحجار تهاوت على رءوس القاطنين من أسفله، قدم إلى هذه المنطقة واستأجر المقهى وزوج ابنته من هذا المنحوس.

●●●

(٢)

نعود للأرملة المسكينة البائسة، فها هى الساعة كما ذكرنا جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، كانت تحتضن رضيعتها والدموع تنسكب من عينيها انسكابًا، وما كان يؤلمها ويزيد من شقائها وبؤسها هو ما تلاقيه طفلتها الرضيعة من ألم ومرض من استنشاقها هذا الدخان المتصاعد دائمًا من المقهى ومن آنية الزيت المحترق بشرائح الباذنجان السوداء، وكان هذا الدخان وهذه الرائحة لا تغادر الحجرة، وإن غادرتها تركت أثرًا، وكانت

فى حجرتها المظلمة، وقد أطلقوا هذا الاسم على هذه الحجرة منذ عهد بعيد؛ لأنها تقع فى آخر البيت من الداخل بعد ممر ضيق طويل وكأنها لم تكن فى حسبان البناء بنايتها لبعدها عن باقى حجرات المنزل، وكانت سيئة التهوية، فلا تدخلها شمس ولا يدخلها نور، فالبنايات أمامها قريبة ومرتفعة، فكانت موضعًا لكل شيء مهمل، وكل أساس قديم، أو أى شيء زهد فيه أصحاب البيت، ولم يكن يسكنها قبل أن تجبرها زوجة أخيها إلا الفئران! ولا تزال تشاركها السكن.

ولم تحظ المسكينة بشيء تنام عليه على الأرض إلا حصير قديم مما تضمنته الحجرة من قديم الأساس، والحجرة مظلمة، لا يوجد بها سوى مصباح كهربائى صغير يصدر منه لون أصفر قاتم يلقى فى الصدر ضيقًا شديدًا ويجعلك تشعر أنك فى عالم آخر كئيب غير الذى نعيش فيه، ينعدم الإحساس فيه بالزمن بل يكاد يتوقف، ولم تكن الحجرة المظلمة هكذا فحسب، بل أسوأ من ذلك هو الدخان المتصاعد من مقهى الحاج متولى، الذى صادفت فوهة مبخرة المقهى أعلى موقد الفحم، الذى تجاوره آنية الزيت المحترق فتحة نافذة هذه الحجرة، فجعلت منها جحيمًا لا يطاق.

وكانت المسكينة تحيا حياة لم ترها أنثى من قبل.. هكذا كانت تظن هى، ويظن من يعرفها أيضًا.

كان عليها أن تترك رضيعتها بعد أن يبدأ نور الصباح ينير الطريق إلى المخبز الموجود فى نهاية هذا الشارع الضيق، ممسكة بيدها مقطفًا صنع من سعف النخيل تحمل الخبز عليه كل صباح، ثم تدلف إلى عم شعبان الذى يضع قدرة الفول أمام منزله القريب من المخبز، ثم تشترى من الصبى الذى يستيقظ مبكرًا لصناعة الطعمية والباذنجان قبل أن يستيقظ أي من المعلم أو أخيها، وعليها أن تفعل كل هذا كل صباح وقبل أن تستيقظ الشيطانة زوجة أخيها

ثم تضع كل هذا على منضدة خشبية موضوعة فى الشرفة الخشبية القديمة المطلة على الشارع، حيث كان المكان المفضل للوحش أن تجلس فيه تنظر وتتسمع ما يدور فى الشارع وما يدور عند الجيران، وكانت المسكينة بعد أن تضع الطعام تهرع للاطمئنان على رضيعتها التى تخشى عليها من الفئران والقوارض أن تلتهم جزءًا من جسدها أو أطرافها.

والطفلة بلغت العام ونصف، وهى أيضًا تشارك أمها البكاء، ولكنه بكاء الجوع، والأم جف ثديها، فمن أين له باللبن وهى لم تشبع من بقايا طعام تلقيه عليها زوجة أخيها، وما كان هذا الطعام إلا بقايا شرائح الباذنجان المحترقة، حتى فعل الزيت فى جوفها ما فعل من مرض، وشحب وجهها وخارت قواها، لكن كل

شـيء مـن الممكـن أن يهـون عليهـا إلا ابنتهـا الرضيعـة، وكـم تمنـت المـوت كثيـرًا ومـا كان يسـترجعها عـن هـذه الأمنيـة إلا ابنتهـا، التـى لا عائـل لهـا سـواها، فجدهـا لأبيهـا رجـل طاعـن فـى السـن مقعـد، وظـن أن خـال ابنتهـم سـيتكفل بهـا ويحسـن تعهدهـا.

وهـى تتحمـل الجـوع والألـم، لكـن الرضيعـة لا تحتمـل، كانـت تخـرج ثديهـا وتسـتجديه وتحـاول جاهـدة فـى خـروج قطـرات منـه، ولكـن الجـود بـه كان عزيـزًا. والأثـداء قـد بـدأت تترهـل وتذبـل.

ولأنهـا لـم تحـظ بالتعليـم، فبالـكاد تعـرف تقـرأ وتكتـب بجهـد وعنـاء، فكانـت تـردد آيـات قليلـة مـن القـرآن حفظتهـا مـن أمهـا رحمهـا الله، وحفظـت منهـا دعـاء كانـت ترقـى بهـا ابنتهـا الرضيعـة إذا خرجـت ملبيـة أمـر لسـيدتها ومولاتهـا زوجـة أخيهـا، فكانـت تشـير بإصبـع إبهامهـا علـى جسـد ابنتهـا وتقـرأ أيـة الكرسـي والمعـوذات وتكررهـا مـرارًا وتحتسـبها فـى كنـف الله وحفظـه، وتدعـو الله أن يحميهـا مـن الفئـران التـى تعيـش معهـا فـى الحجـرة المظلمـة، والأخطـر منهـم هـذا الوحـش زوجـة أخيهـا وأبناؤهـا الذيـن يشـبهون القـرود إلـى حـد كبيـر خلقـة وحركـة!

●●●

(٣)

لم يكن هناك من يشعر أو يهتم بهذه البائسة المسكينة سوى سيدة عجوز تبيع الحلوى الرخيصة للأطفال، وبعض الأشياء زهيدة الثمن من علب ثقاب ومساحيق غسيل وغيرها.

وكانت السيدة العجوز تعطف عليها كثيرًا، ولم تكن فى استطاعتها أن تقف وقتًا كافيًا بجوارها تبث همها وحزنها، فهى تخشى على رضيعتها من جهة، ومن جهة أخرى لا تأمن إذا ما تأخرت على الوحش القابع فى المنزل.

فكانت تختلس الدقائق القليلة فى طريق عودتها من المخبز، فقد كانت السيدة العجوز تبدأ يومها باكرًا مع بزوغ نور الصباح، وتدنو منها وتقبّل رأسها وتطلب منها الدعاء لها، وأن يلطف الله بها ويحميها من الشيطانة التى سكنت منزلها.

وكانت السيدة العجوز تحن عليها أى حنان، وترفق بها أى رفق، ولا تنسى أن تعطيها قطعة حلوى من الحلوى الرخيصة التى تبيعها للأطفال، لعلها تزيل شيئًا من مرارة وعلقم سكنا فمها المقهور ولسانها المقيد.

وذات مرة شكت البائسة للسيدة العجوز أمر رضيعتها التى تبكى ليل نهار من الجوع، وأن صدرها قد نضب من اللبن، ولا تعرف حيلة فى ذلك، وأعطتها السيدة العجوز قدرًا من الأعشاب

ربما تسد رمق الرضيعة حتى تجد لمشكلتها حلاً، لكن الأعشاب لم تسكن فى جوف الرضيعة، و زادت آلامها وقلة حيلتها،

لكن العجوز الطيبة قد قامت بعمل إذا ما قورن بالجنيهات القليلة، التى تمتلكها يعد جوداً ما بعده جود، وبذلاً ما بعده بذل، فاشترت لها علبة من اللبن المجفف، وهو بالنسبة لها باهظ الثمن وفائق لطاقتها، ولكنها فعلت ذلك من أجل الأم البائسة التى لا تجد لها نفقة، ولا منفق ولا يد تربت عليها فى حنو ومروءة.

حتى إذا ما جاءت فى الصباح التالى وأخرجت السيدة العجوز هذه العلبة، التى دهشت لها البائسة كل دهشة سائلة لها:

- من أين أتيت بهذه؟

فأجابتها:

- لا عليكِ يا بنتى، خذيها وأطعمى رضيعتك أثابك الله

- لكنى أعلم أنها باهظة الثمن، ولا أريد أن أشق عليك.

- إن رزق الله واسع، ورزقه ما له من نفاد.

فردت عليها:

- ولكن .. لا أستطيع أن أدخل المنزل وهذه العبوة فى يدى... تعلمين أن هذه الشيطانة لن تتركنى أعيش ولو للحظة دون جبروتها..

فردت عليها السيدة العجوز:

- لا عليكِ، لديّ حل.. سأحتفظ أنا بالعبوة وستأخذين أنت مقدار ما تحتاجينه لابنتك كل صباح فى طريق عودتك للمنزل.

واقتطعت من إحدى الكتب الدراسية القديمة التى تحتفظ بها لكى تصنعها قراطيس تضع بها الحلوى المنفرطة للأطفال، وكانت البائسة وهى تدس هذه اللفافة من الورق فى صدرها، وتسدل عليه منديلها القديم الممزق أشد حرصًا من أخيها وهو يبيع اللفافات، التى تحوى الحشيش والأفيون وباقي المواد المخدرة!

ولمحت السيدة العجوز سؤالاً حائرًا فى عين البائسة.. كيف ستطعم الرضيعة وهى لا تملك من الحياة شيئًا، لكن السيدة العجوز لم تنس أن تشترى لها أيضا ما ترضع به رضيعتها، واغرورقت عيناها بالدموع وطفقت تقبل يدها داعية أن يستر الله عرض ابنتها الوحيدة عفاف وأن يخلفها خيرًا، وأن يثيبها الله خير الثواب جزاء معروفها.

ورجعت وأعدت فى سرية وكتمان لبنًا لرضيعتها، ونظرت إليها فى حنو، ووضعت فم العبوة فى فمها الجائع فالتقمتها وأخذت ترضع فى شره.

واستطاعت الأم أن تذوق طعم النوم لساعة أو ساعتين متصلتين لا يقطعها بكاء ابنتها من الجوع.

ولكن الأيام تمر، ويبدو من نظرات السيدة العجوز أن العبوة قد شارفت على النفاد، وهى تعلم أن العبوة باهظة الثمن بالنسبة لها، وتود لو تشترى لها أخرى ولكن الجنيهات قليلة، وذات اليد قصيرة مغلولة بالفقر والعوز.

وأخذ الحزن والقلق يزداد، وكلما نظرت لرضيعتها التى بدأت تعتاد على ميعاد رضاعتها، أشفقت عليها وانسكبت الدموع الغزيرة من عينيها انسكابًا.

وفى إحدى الأيام وهى عائدة من المخبز، تحمل على رأسها الخبز وتمسك بيدها الأخرى كيسًا من الفول، اقتربت من السيدة العجوز ودنت منها قائلة:

أعلم أنك كنت تتمنين لو استطعت أن تشترى عبوة أخرى من اللبن لابنتى، ولكنى أعلم الحال جيدًا، وأسأل الله أن يجازيك على ما تفعلينه من أجلى، فأنت فعلت الكثير جدًّا، ورأيت منك ما لم أره من رحمى وأقاربى الذين تنكروا لى ولم يعبأوا بحالى، وما رأيت منك إلا ما تراه البنت من أمها الحنون، وما سمعت منك إلا تثبيتًا لقلبى المكلوم وروحى اليتيمة، لكن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها..

كانت السيدة العجوز وهى تسمع هذه الكلمات تحتجز دمعتين أرادتا أن تنحدران على وجهها الذى كثرت به التعاريج...

أطرقت السيدة العجوز هنيهة ثم رفعت رأسها وكأنها تحمل على لسانها بشرى:

- اسمعى يا ابنتى إن هناك حلاً لهذا

وسألتها فى لهفة:

- وما هو؟

إن الحكومة تعطى للفقراء والأرامل معاشًا، وقد تضاعف المبلغ الذى آخذه كل شهر إلى مائة جنيه، ويقولون الآن وبعد الثورة إنه سيزداد إلى ثلاثمائة جنيه شهريًا...

تخيلى يا ابنتى لو أنك حصلتى على هذه المائة من الجنيهات... ستستطيعين شراء اللبن الخاص بابنتك، وربما كانت الزيادة قريبة فتصبح المائة ثلاثة!!

وفرحت البائسة فرحًا شديدًا واطمأنت لهذه الفكرة وهذا المصدر الذى يكفل لها إطعام رضيعتها..

ثم نظرت للسيدة العجوز قائلة:

لكنى لا أحسن الخروج من هذا الشارع، ولا أجد الوقت الذى أهرب منه من الشيطانة، ولا أجد حارسًا لابنتى منها، ولا من القرود الذين يسمون أبنائها!

ولا أعرف شيئًا عن الأوراق المطلوبة لتقديمها، ولا أعرف للمكان له سبيلاً!

وأطرقت العجوز ثم قالت:

- سأتدبر الأمر.. أعرف سيدة فاضلة تسكن فى أحد الشوارع القريبة، تسكن فى منزلها العتيق وفاءً لأيامها الأولى مع زوجها رحمه الله، ولها ابن يبرها كل بر ويتردد عليها دائمًا، وهو يعمل محاميًا فى أحد أحياء القاهرة الراقية، ولا أظنه سيرد طلبًا لوالدته إذا ما سألته أن يقدم لك يد المعونة.

وابتسمت السيدة البائسة.. ثم أطرقت وقالت:

- لكنك يا جدتى العزيزة لا تقوين على السير، إنك تجاهدين نفسك جهادًا كبيرًا فى الخروج من المنزل فى الطابق الأرضى، ولا تغادرين ردهته إلا بعد أن تغيب الشمس..

وردت عليها السيدة العجوز فى حنو:

- لا تقلقى يا ابنتى.. سأتدبر أمرى إن شاء الله.. والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه..

ومضت هى مسرعة فى العودة، وهى تحمل الخبز على رأسها، وكيس الفول فى يدها الأخرى وتحمل أيضًا بصيص أمل.

●●●

(٤)

ولما كان صباح اليوم الثانى، وخرجت السيدة العجوز من منزلها متجهة إلى منزل السيدة الثرية التى تودها أحيانًا، وتعطف عليها مع مثيلاتها من النسوة الفقيرات.

وكانت تجاهد جسدها الثقيل الهرم وقدماها لا تكادان تحملاها، وكانت تستند على حوائط البنايات تارة، وتستند على أحد أعمدة الإنارة تارة أخرى، تريح قدميها ورئتيها من التعب.

وأخيرًا وبعد أن وصلت أمام المنزل العتيق الذى كاد أن يكون أثريًا، ولكنه يحتفظ ببعض هيبة وشموخ منازل أثرياء الزمن الماضى.

وما إن اقتربت من الباب إلا وألقت بجسدها الثقيل المنهك على الأرض، وأخذت تزحف قربًا من الباب أكثر وأكثر، وانتظرت أن يدخل أحد أو يخرج لكى ترسل للسيدة صاحبة المنزل، وما هى إلا دقائق وخرجت الخادمة، فطلبت منها أن تخبر سيدتها أن هناك عجوزًا عاجزًا أمام المنزل تأمل فى عطفها وكرم أخلاقها فى مقابلتها.

وبعد هنيهة نزلت السيدة درجات السلم فى بطء وتؤدة.. واقتربت منها وصافحتها.

أما السيدة العجوز فراحت تسهب فى الدعاء لها، وأن تقبل معذرتها لإزعاجها، وقاطعتها السيدة صاحبة المنزل قائلة فى هدوء وعطف:

لا عليك يا أمى.. فلتسألي ما شئت

فقالت لها:

بارك الله فيك ايتها المرأة الصالحة، أطال الله عمرك وحفظك وحفظ ابنك بعينيه التى لا تنام..

وقصت السيدة العجوز بإيجاز قصة المرأة البائسة.. وما يمكن أن يفعله ابنها حفظه الله من خدمة ومساعدتها من تقديم تلك الأوراق، وهو عمل صغير لا يليق بهذا الابن زاده الله جاهًا ومكانة.. ولكن مثل هذا الصغير من الأمر سيكون سببًا فى سعادة أم ارملة، ورضيعة يتيمة ليس لهما أحد إلا الله..

وأجابتها السيدة أن ذلك على الرحب والسعة، وهاتفت ابنها فى التو واللحظة والذى بدا فى حديثه مع والدته ساهبًا فى السؤال عن صحتها وأحوالها والاطمئنان على رضائها عليه ودعائها له، وأجابته الأم سريعًا ملمحة أن الوقت ليس وقت تحيات بينهما بل لأمر ما.

وأخبرته أنها تريد منه أن يسدى خدمة لسيدة يهمها أمرها جيدًا، وجاءها الرد منه سريعًا إنه على أتم الاستعداد بما تأمره والدته به، وأن ما يهمها يهمه أيضًا، وبعد أن لخصت له القصة فسألها عما إذا كانت تمتلك شهادة وفاة لزوجها وميلاد لابنتها وبطاقة محرر بها أنها أرملة!

وسألت السيدة الفاضلة السيدة العجوز عن تلك الأوراق فأخبرتها أنها لا تملك إلا شهادة ميلاد ابنتها وبطاقة ثابت فيها أنها متزوجة.

ونقلت هذا إلى ابنها الذى طمأنها أنه سيقوم بتكملة الأوراق الناقصة، وعليهم أن يرسلوا إليه البطاقة الشخصية وشهادة الميلاد وتاريخ الوفاة بالتقريب وسوف يقوم بعمل اللازم.

وودعت الأم ابنها البار قائلة له إنها سترسل له الأوراق غدًا مع خادمتها.

وأنهت المكالمة وربتت على كتف السيدة العجوز التى راحت تدعو الله لها ولابنها دعاءً طويلاً، وطلبت منها ألا تتعب نفسها فى المجيء إليها وأن خادمتها ستكون بينهما رسول.

وأخرجت السيدة مبلغًا من المال وأعطته إياها وأخذته السيدة العجوز على استحياء.

وحينما عادت وأخبرتها بما كان من فضل هذه السيدة وكرمها، سعدت باقتراب اليوم الذى ستضع فى يدها ما لا تستطيع به إطعام رضيعتها.

وحاولت السيدة العجوز أن تقتسم المبلغ الذى أعطته السيدة لها، وكان ورقتين ماليتين الواحدة منهما فئة المائة جنيه، ولكن البائسة رفضت، فما كان من السيدة العجوز إلا أن تشترى عبوة من اللبن الجاف للطفلة الرضيعة إلى حين أن ينصلح الحال.

وعرفت المرأة البائسة طعمًا ولو قليلاً من الفرحة والأمل من إيجاد طريقة تكفل لابنتها ما يسد رمقها.

وأعطت للسيدة العجوز أوراقها وحلمها البريء الذى يقترب من أحلام الطيور.

ومرت ثلاثة أيام وجاءت الخادمة تقول للمرأة العجوز إن السيدة صاحبة الطلب قد اكتملت كل أوراقها، ولم يتبق لها إلا أن تتوجه للمكتب الحكومى الموجود عنوانه فى هذه الورقة، فهى لا بد وأن تقوم بالإمضاء على الطلب والأوراق بنفسها أمام الموظف المختص، وسلمت الورقة لها وغادرت.

وكان ذلك يمثل مشكلة لا قبل للمسكينة أن تواجهها، فهى لا تستطيع أن تحيد عن طريقها ما بين المخبز وبائع الفول بجواره،

والصبى بائع شرائح الباذنجان السوداء الذى يستبق أخاها فى البيع أو قل إن استطعت أن أخاها لا يكترث لهذه المهنة إلا دقائق معدودة، متفرغًا لتجارته الأخرى، ولا تفعل ما يزيد على ذلك سوى الدقائق القليلة التى تختلسها وتتحدث فيها مع المرأة العجوز.

إذًا كيف تذهب، وأين تضع ابنتها؟

وماذا لو عرفت الشيطانة بهذا؟

أما السيدة العجوز فلم تجد حلاً لها سوى أن تحضر رضيعتها، وتقوم ابنتها عفاف برعايتها هذه الساعة أو الساعتين التى تغيبهما.

وكيف ستخرج بابنتها من المنزل دون أن تراها الشيطانة لعنها الله؟ والشيطانة لا أحد يستطيع أن يصرفها أو يستعيذ منها كما يستعاذ من شياطين الجن.

ولكن لا بد من طريقة لهذه المسكينة البائسة التى لا يكاد ينفرج لها موضع حتى يلوح لها عائق، وأخذت تفكر طوال الليل وكادت دموعها تبلل الورقة التى تمسكها متشبثة بيدها، وقد كتب فيها العنوان الذى ستتوجه إليه غدًا، وعليها أن تكون هناك الساعة العاشرة، حيث سيرسل لها ابن السيدة التى قدمت لها يد العون من سيساعدها، ريثما تصل إلى مكتب الموظف المختص.

●●●

(٥)

قضت ليلة ممزوجة بالخوف والرجاء، تدعو الله أن يسترها عن عين الشيطانة زوجة أخيها، وأن توفق فيما تصبو إليه أحلامها البسيطة.

وما أطول ليل من به هم، إن الدقائق تمر بطيئة متثاقلة، والخوف يملؤها، والرجاء أيضًا.

عندما سمعت آذان الفجر تسللت من حجرتها المظلمة وتوضأت وصلت وأطالت سجودها ودعاءها، وبعد أن قامت بما تقوم به كل صباح من إحضار الخبز والطعام ووضعته فى شرفة الشيطانة، دخلت حجرتها وأخذت تتلو ما تحفظه من آيات القرآن والأدعية، وكان من حسن حظها أن الشيطانة استعدت للخروج بعد التهام إفطارها لبيت والدها، وهو وإن كان قريبًا من المنزل، إلا أنه سيكون سببًا فى خروجها من المنزل دون أن تراها.

وقد حدث ما كانت تتمناه، وخرجت تحمل طفلتها على صدرها، وعرضت عليها السيدة العجوز أن تدع طفلتها إلى حين رجوعها إلا أنها فضلت أن تأخذ طفلتها معها، فقد تمنت أن ترى ابنتها النور والشمس وتستنشق هواءً نظيفًا ولو لساعة.

بعد عناء وازدحام شوارع القاهرة، وسألت كثيرًا من المارة بعد أن أعطتهم الورقة المتضمنة عنوان الجهة الحكومية التى تقصدها، وصلت ووجدت رجلاً قد أرسله المحامى ابن السيدة الفاضلة ينتظرها بجوار الموظف لمساعدتها، وقامت بالإمضاء على الأوراق التى طلب منها الموظف المختص إمضاءها عليه.. وجاهدت نفسها جهادًا عسيرًا لتتذكر كيف ترسم اسمها كما استحفظت منذ زمن.. كانت يدها ترتعش، ويدها الأخرى تمسك بطفلتها التى أخذت تحملق فى الوجوه من حولها.

بعد أن أتمت كل هذا، غادرت مسرعة إلى المنزل خشية رجوع الشيطانة زوجة أخيها قبلها.

وهرولت مسرعة يحدوها الخوف والرجاء،لكن الشيطانة كانت قد رجعت إلى المنزل، ولما لم تجدها أرسلت إلى زوجها تخبره أن أخته قد هربت من المنزل، ولا بد وأنها بغى ويجب التخلص منها، وأخذت تبث فيه سمها كالأفعى.. ووجدت أخاها ينتظرها أمام المنزل، وما إن رأته ورأت الغضب والتجهم على وجهه، أدركت أن أمرها قد انكشف للشيطانة وأرسلت له، وأرادت أن تقول له الحقيقة، وتطلب منه أن يدعها تدخل المنزل، فالنساء كثيرات فى شرفات منازلهن ينظرن إليها، وأرادت أن تستتر من الجيران والمارة، لكنه لم يعطها فرصة وباغتها بصفعة على وجهها

فارتمت على الأرض، وهى تحتضن رضيعتها التى راحت تصرخ فى هلع وخوف شديدين، وارتمت المسكينة على الأرض وسط نظرات الجيران والمارة، وشعرت أن ما كان يتبقى لها من آدمية أو كرامة قد سقط معها على الأرض، وأخذ أخوها يضربها ضربًا مبرحًا، فالمخدر الذى يتعاطاه والحشيش الذى يستنشقه كل يوم جعل أعصابه مشدودة متصلبة، وكأنه وحش مفترس على الرغم من نحافة جسده، وأخرج حزام بنطاله وأخذ فى جلدها به وهى تزحف على الأرض متشبثة برضيعتها، وتمنت أن يغيثها أحد، لكن لا مغيث.

واستجمعت قواها وحملت رضيعتها، ودخلت المنزل تترنح على درجات السلم وهو يلاحقها.

ورأت ذلك كله السيدة العجوز، ولكنها عاجزة عن فعل أى شيء، لكن ابنتها عفاف لم تستطع الصمت، كانت تعلم أن دخولها هذا المنزل هو دخول للجحيم بعينه، لكنها أسرعت لتنقذ المسكينة البائسة.

وعندما صعدت لها فى الطابق الثانى وجدت الشيطانة قد أعطت سوطًا لأخيها الذى انهال عليها ضربًا، وكانت المسكينة تصرخ صراخًا عاليًا كلما وقع على جسدها الهزيل هذا السوط، والرضيعة فقدت صوتها من كثرة البكاء والهلع، ولم تجد دعوات

عفاف وصراخها أن يكف عن هذا الضرب بصورة وحشية على جسد أخته المسكينة التى كانت تسمع كلامًا منه أشد بكثير من ضربها بالسوط، واتهمها بالبغاء والفجور وخروجها بدون طوعه وأمره وإذنه، وارتمت عليها تفاديها بظهرها، ولم تسلم هى الأخرى من عدة ضربات على ظهرها، لكنها صمدت وعلمت أنها الطريقة الوحيدة لجعله يكف، وأن يهدأ هذا الثور الهائج ولو لدقيقة.

وهدأ الثور الجامح، متوعدًا أنه سيقتلها قبل أن يأتى عليها الليل إذا لم تخبره أين كانت، ولماذا خرجت متسللة، وراحت تشرح لصديقتها أين كانت، وأخرجت المسكينة الورقة التى كان بها العنوان التى كانت ما زالت تحتفظ بها فى صدرها، وأخذها وخرج متوجهًا للتأكد من صحة ذلك الحديث.

وأخذت صديقتها تحتضنها تارة، وتارة أخرى تحتضن الطفلة التى كادت أن تموت هلعًا وجزعًا،

لكن الضربات الموجعة والسوط الذى ترك أثرًا داميًا على جسدها، وكلمات أخيها التى سحقتها وسحقت ما كان يتبقى من كرامتها قد فعل بها ما فعل من ألم وجحيم لا يحتمله بشر.

وأخذت المسكينة تتلوى على الأرض وهى تئن أنينًا ينفطر له القلب، ولم يكن هناك قلب بجوارها سوى هذه العجوز وابنتها التى تجلس الآن معها، والتى راحت تبلل قطعة من القماش

وتضعها على ظهرها كي تلطف من شعورها بلهيب السياط، التى فعلت بها ما فعلت من آلام وعذاب وجروح لا تندمل.

لم تمر ساعة ونصف حتى رجع أخوها يحمل فى يده الأوراق التى تقدمت بها للمكتب الحكومى للحصول على إعانة من الدولة تكفل لها شراء طعام ابنتها، وما إن دخل حجرتها حتى فزع من فيها، ووقف وأمسك بالأوراق وأخذ يمزقها أمامه قائلاً لها: إذا خرجت يومًا من هذا المنزل دون علمى وإذنى، سيكون آخر يوم لك، أما هى فقد كانت تقول فى نفسها: وهذا ما أتمناه، إن الموت أفضل بكثير من هذا الجحيم.

وطال الوقت، وصديقتها بجوارها، لم يجدا كلامًا ولا حديثًا، فلا معنى لأى شيء فى الوجود.

وأى كلام لن ينصف هذه المخلوقة البائسة،

نظرت إلى صديقتها عفاف وقالت:

لا أعرف كيف أشكرك أختى العزيزة، ولا أعرف ماذا كان سيحدث لى ولتلك الطفلة اليتيمة، لولا مجيئك أشعر أن الدنيا تحولت لغابة، ولا يوجد آدميون بها سوى أنت وأمك، أبلغيها منى السلام، وأنى أتوسل إليها أن تدعو لى الله، إن لسانى عاجز عن أى شيء.

والآن عليك أن تذهبى، إن الوقت قد تأخر، ولا بد أن والدتك قلقة عليك.

وربتت على كتفها وطلبت منها أن تهدأ وتحاول أن تستريح قليلاً، ولكنها كانت تعلم أنها لن تستطيع أن تذوق طعمًا للراحة وآثار الضربات والجلد على جسدها، ولكنها لم تجد لها قولاً غير ذلك، وأخبرتها أنها ستزورها إذا ما جاء النهار.

وشكرتها بصوت منخفض ممزوج بأنين وألم، وقضت ليلتها وهى تتوجع وتتألم وتئن، وكثيرًا ما كانت تنظر إلى ابنتها الرضيعة فى شفقة وخوف عليها من أيامها فى هذا المنزل البائس، وهذه الحجرة المظلمة والحيوانات المفترسة التى يعيشون معها.

●●●

(٦)

لم يكن لها أنيس ولا أمل ولا راحة إلا فى الصلاة، وهى لم تكن تحفظ كثيرًا من آيات القرآن، ولا تعرف دعاءً مأثورًا، ولكنها كانت تطيل السجود، ودموعها تسبقها على حصيرتها، وتأخذ فى الدعاء أن ينقذها الله من هذه الآلام والمعاناة التى تذوقها كل لحظة، وفى هذه الليلة وجدت عناءً وجهدًا كبيرين فى قيامها ووضوئها، ولكنها استطاعت ذلك فى صبر رزقها الله به، وصلّت

وسجدت وأطالت السجود والبكاء، وشعرت أن كل جارحة وكل جسدها يسجد لله، حتى أدركها النعاس وهى تصلى من شدة التعب، وما رأته من بداية يومها، وارتمت على حصيرتها.

ورأت فى منامها نورًا يأتى من بعيد، وتسللت إلى صدرها رائحة طيبة لم تعرفها فى حياتها، وكأن الله أراد أن يرزقها بطمأنينة وسكينة، فهى توسلت به ودعته وأطالت الدعاء.

واستيقظت مع سماعها آذان الفجر، وشعرت أن الله لطف بها لطفًا عظيمًا، وأن النور الذى رأته هو ملائكة سيرسلها الله قريبًا لها لكى تتخلص من معاناتها.

وما رأيت امرأة فى طيبتها ورقة قلبها، بل إنها أرق من الطيور قلبًا، والصبر على ما تراه من هذا الجحيم لا بد وأن يتبعه فرج، عاجلاً أم آجلاً ستدخل الجنة، فما تصبر عليه يعجز عن احتماله الرجال أولى العصبة والقوة.

وهذا النور الذى رأته هو دليل كاف لها على أن الله لن يتركها، وما عليها إلا أن تنتظر هذه الملائكة التى سيرسلها الله لها.

مرت الأيام، لا تتردد عليها بين الفينة والفينة سوى عفاف ابنة السيدة العجوز التى كانت تعطف عليها وتدس لها طعامًا

تقيم بها صلبها، وأهم من ذلك تحضير اللبن الجاف لرضيعتها، وتعد لها ذلك كل يوم على وجه التقريب.

ولكن الرياح دائمًا ما تظل تأتى بما لا تشتهيه السفن، ولكن الريح هذه المرة شعرت أنها بوابة الدخول إلى جهنم، وأن قواها قد خارت، وصبرها كاد أن ينفد أو فعل، وأنها لن تقوى على احتمال كل هذا، ونظرت إلى السماء تسأل متى نصر الله.

وتمنت أن تسمع هاتفًا يرد عليها إن نصر الله قريب،

فى إحدى الأيام دخل عليها شقيقها وهو يسعل من دخان سيجارته المختلط بمخدر الحشيش، وما إن رأته إلا وعرفت أن مكروهًا سيصيبها، إن وجهه لا يأتى بخير أبدًا، فهو قد فقد إنسانيته وآدميته منذ أن تزوج بالشيطانة، والتحق بالعمل مع تاجر المواد المخدرة وصاحب الجسد البشع.

نظر إليها وكأنه سيلقى بيانًا ثم يخرج:

- جئت أخبرك أن الحاج متولى حماى العزيز قد طلب الزواج منك، وأنا وافقت، والخميس القادم هو يوم زفافك إليه.

ثم تركها وخرج، أما هى فوضعت يدها على جبينها ونظرت إلى ابنتها فى حجرها، ولم تجد شيئًا لتقوله لنفسها، ولم يدر فى مخيلتها سوى صورة الحاج متولى البشعة، وحياته التى يقضيها

فى تجارته المحرمة نهارًا، وزجاجة الخمر التى لا يدعها طوال الليل.

وخارت قواها، وتسلل إلى إحشائها ألم جعلها لا تقوى على النهوض من على الأرض.

ويبدو أن دموعها قد نضبت، فتوقفت عيناها عن الدموع، وتوقفت حياتها، وكلما همت بالدعاء أن ينقذها الموت من كل هذه المعاناة والجحيم، نظرت إلى رضيعتها وكأنها تسأل نفسها:

- وهذه المسكينة اليتيمة أين تذهب ومن يرعاها؟ فتعدل عن هذا الدعاء.

وقصت على السيدة العجوز وابنتها ما حدث، وراحت عفاف تصرخ وتقول:

- لا بد من فعل شيء..

ولكنها كانت تموت رعبًا من أخيها وزوجته، وطلبت منها ألا تفعل شيئًا، وأن أى شيء ربما يعجل بقتلها وابنتها على يد أخيها وزوجته.

ولكن صديقتها عفاف قالت لها إنه لن يحدث لها أكثر مما حدث، وعليها أن ترفض هذه الزيجة من هذا المسخ الذى يدعى الحاج متولى.

ولكن لا حيلة لها ولا طريق، وفكرت فى الهروب ولكنها لم تطمئن لهذه الفكرة، فإذا لحق بها شقيقها لقتلها فى الحال، وهى لا تخشى الموت أو القتل، بل إنها تتمنى الموت كل يوم، ولكنها تخشى من معاناة ابنتها اليتيمة التى لا تقل عنها حيلة.

تبقى ثلاثة أيام على يوم الزفاف، وبدأت الأوجاع والآلام تتسلل إلى جسدها كله، وكانت تطيل السجود وتتمنى لو ترى رؤية مثل التى رأتها منذ أيام وسكبت فى قلبها طمأنينة ونور، وانتظرت الغوث من السماء.

بعد أن صلت العصر، وأسندت ظهرها إلى الحائط، ونظرت لرضيعتها التى كانت تبتسم، وأخذت ابنتها فى الابتسام وهى تنظر لأمها وكأنها تواسيها، وحاولت جاهدة أن تبتسم لابنتها، ولكن وجهها لم يعتاد إلا على البكاء والدموع، فلم تستطع إلا فتح ثغرها شيئًا يسيرًا.

ثم سمعت زوجة أخيها تتحدث معه بصوت عال، وكان الحديث يدور عن عريس جديد غير الحاج متولى، وقامت زوجته بنهره وسبه بأقبح السباب قائلة له:

- ما دام أبى قد أراد أن تكون هذه الحمقاء خادمة له فلا توجد قوة تستطيع أن توقف أوامره.

ورد عليها فى جمود:

- أنتِ لا تعرفين شيئًا، إن الحاج متولى نفسه من بارك هذا الزواج الجديد، بل طلب منى أن أنفذ كل ما يأمر به العريس الذى قدم من مكان لا نعرفه!

وقالت له زوجته الشيطانة:

- لا بد وأنك قد أسرفت فى تعاطيك هذا المخدر، وأن كأسًا من خمر فاسد قد أطاح بعقلك الأحمق، أن ما تقوله لا يعدو وأن يكون هذيانًا لا معنى له، لكنه أكد لها ما يقول، وأن عليها أن تذهب إلى أبيها نفسه لتتأكد.

وهنا شعرت أن الموضوع على سبيل الجد لا الهذيان، فسألته:

- وكيف حدث هذا أيها المتعوس؟

فأجابها أن رجلاً قد قابله اليوم وطلب منه الزواج من أخته، أما ما جعل الحاج متولى يوافق على هذه الزيجة هو أن العريس على معرفة وصداقة شديدة بالسيد رئيس مباحث القسم، الذى ما كاد يسمع اسمه حتى ارتعد الحاج متولى، وكيف لا وهو يمثل الخطر الوحيد فى حياته، وخشى إذا رفض هذا الطلب من غضب صديقه، وصديقه الضابط يستطيع أن يضعه فى رأسه، وأن يتفرغ له ويحدث مالا يتمناه الحاج متولى أو زوج ابنته.

وما هى إلا لحظات ونظرت أمامها ووجدت شقيقها يقف أمامها فى الحجرة.

نظر إليها قائلاً:

- لقد تقدم إليك اليوم رجل غير الحاج متولى، وقد وافقنا جميعًا عليه، وسيأتى غدًا بعد صلاة العصر لرؤيتك.

وخرج من الحجرة، وخرج معه كثيرًا من هذا الألم القابع فوق صدرها، وشعرت أن الله قد أرسل إليها من يغيثها من براثن هذه الوحوش، وسألت نفسها عن هذا الرجل الذى تقدم لها وهى لا تعرفه! وكيف هو عرفها، ولكن كلمة واحدة جعلتها تطمئن؛ أنه على صداقة مع السيد الضابط رئيس مباحث القسم، إذًا لا بد وأنه ليس شيطانًا ولا وحشًا على الأقل، وأن أى إنسان فى الوجود لن يكون أسوأ من الحاج متولى.

ثم نظرت لابنتها ووجدت نفسها تتساءل:

- ما مصير هذه الطفلة؟ هل يوافق الزوج القادم من الغيب على أن تصطحب ابنتها معها؟ وكيف إذا رفض؟.. إذًا لن تتركها، ودارت أسئلة كثيرة فى رأسها لكنها شعرت بسكينة تتسلل إلى روحها وجسدها، وأن الله استجاب لدعائها، وأنه لن يخذلها أبدًا.

فى اليوم التالى زفت هذه البشرى إلى السيدة العجوز وابنتها اللتين فرحتا أشد الفرح لها، متمنين لها أن يخلصها الله من هذه الحياة البائسة مع أخيها وزوجته.

وبعد صلاة العصر لم تجد المسكينة ما ترتديه النسوة فى هذه المناسبات، ولكنها ليست كأى أنثى، فهى تحيا حياة بلا موت، وعلى الرجل أن يقبلها على ما هى عليه من بؤس وشقاء.

ونادى عليها أخوها أن تخرج وتصافح العريس، وضعت ابنتها وخرجت تجر أملها وتتوسل أن يكون الغيب قد احتفظ لها بشيء من النور وشيء من الراحة.

●●●

(٧)

تقدمت وهى تنظر كالتائهة، ونظرت إليه ورفعت يدها الهذيلة جاهدة لمصافحته، ووقف هو وصافحها، وحينما نظرت إلى وجهه تعجبت كل العجب، إنها لم تتخيل قط أن يكون هذا الشاب الذى يبدو عليه صغر السن والثراء والتقوى هو من تقدم لها، كان فى العقد الثالث من عمره، ووجهه شديد البياض خالطه بعض الحمرة، وكأن نورًا يخرج من هذا الوجه، حتى ظنت أنه ملاك وليس آدميًا، وتشابكت يداها المرتعشتان، ولم تجد كلامًا تقوله ولا هو.

ولكنها تذكرت ابنتها ولم تضع الفرصة فى سؤاله قائلة:

هل يسمح سيدى بأن أصطحب ابنتى معى، أتمنى أن تحقق لى هذه الأمنية برب محمد...

وصلى هو على سيدنا محمد وابتسم:

- فليكن ما تريدين.

وعرفت هى لأول مرة منذ زمن ما معنى السعادة، وذاق قلبها فرحة شعرت معها أنها تحلم، وأرادت أن تسأله عما إذا كان هذا حلمًا أم حقيقة؟ هل هو رجل أم ملاك تراه فى رؤية صالحة لا يراها إلا عبد صالح قد أنعم الله عليه بنعمة الرضا والقبول؟

والسؤال الذى كان يحيرها ويجعل شقيقها وزوجته أكثر حيرة، من أين هذا الرجل؟ وكيف عرفها... وأين رآها؟

ولم يجرؤ أحد على سؤاله، خاصة بعد أن أجرى صديقه الضابط اتصالاً هاتفيًّا يطمئن عليه وعلى أمر زواجه أثناء تواجده عندهم، وما كان من أخيها ووالد زوجته إلا أن اشتد خوفهما ورعبهما، وتوقفا فى هذه الأيام عن تجارتهما.

ثم غادر العريس بعد أن اتفق على يوم الزواج، أما هى فقد هرولت إلى حجرتها واحتضنت ابنتها وأخذت تقبلها من فرط السعادة، ووجدت نفسها تشتاق إلى السجود لله شاكرة، فما

كان لها أن تنسى ربها الذى يستجيب دعاءها، أو تنسى السجود الذى كان يفيض عليها طمأنينة وراحة تتسلل إلى روحها المجهدة وجسدها الهزيل، وصلّت المغرب وأطالت السجود، ولكنه هذه المرة سجود شكر لله الخالق الودود اللطيف بعباده.

فى فجر اليوم التالى وفى طريق عودتها من المخبز، ذهبت إلى السيدة العجوز لتزف إليها البشرى،

وفرحت السيدة العجوز فرحًا شديدًا متمنية لها أن تدوم فرحتها وسعادتها، وجاءت ابنتها عفاف التى لم تكن أقل فرحًا من أمها بهذا الخبر السعيد، وهن لا يكففن أبدًا عن التعجب من كل ما يحدث، وكيف الله يمن على عباده المستضعفين ويجعلهم هم الوارثون.

وجاء يوم الزواج، وجاء العريس ومعه المأذون بعد صلاة الظهر، ودخل عليها أخوها يسألها بصفته وكيلاً عنها، ولم تجبه، ولم تود محادثته، وخرج أخوها يتمطى يزف خبر العروس التى وافقت على الزواج من هذا الرجل المحترم، وكأنه أراد أن يحظى برضا العريس، ويثبت له أنه نعم الأخ لأخته، ولكن المأذون عاجله قائلاً:

- لا حاجة لوكالة فى هذا الزواج لأنها ثيب، وأنها ستزوج نفسها بنفسها، وخرجت هى على استحياء ورددت ما أملاه عليها

المأذون، وكانت هناك دمعتان أرادتا أن تنحدران من عينيها فرحًا فى هذه اللحظة، لحظة إحساسها أن لها زوجًا ورجلاً يحميها ويحسن معاملتها. ويخلصها من معانتها، فلم تكن تتمنى زوجًا كأى امرأة، فقد كانت تتمنى الخلاص من معاناتها، زاهدة أو ناسية ما تبقى من الحياة من فرح أو سعادة أو متعة.

وقبل العريس إيجاب العروس، وتم الزواج، وكانت معها صديقتها عفاف التى كانت تقف بجوارها، وأشار العريس إليهما أن ثوب الزفاف وبعض لوازم الزينة موجودة فى هذه الأكياس بجوارهما، وأخبرها أنه سيأتى بعد صلاة العشاء لأخذ عروسه، وغادر هو المنزل، ودخلت هى وصديقتها الحجرة، وبقيت زوجة أخيها تصدر فحيحًا كصوت الأفاعى، غير مصدقة أن هذه البائسة التى كانت وما زالت خادمة تحت قدميها، سوف تتزوج من هذا الشاب الثرى وتغادر الحجرة المظلمة إلى بيت يملؤه النور والسعادة.

وجاء العريس فى الميعاد، وخرجت هى وصديقتها بجوارها تحمل طفلتها، ودخلت السيارة الفارهة وجلست بجوار زوجها، وهى غير مصدقة أن الحياة قد ابتسمت لها كل هذا الابتسام والرضا.

وصافحت صديقتها وأمها السيدة العجوز وشكرتهما على وقوفهما بجوارها، وأنها لن تنساهم وستتردد عليهم كثيرًا، وطلبت من زوجها أن يكتب عنوان المنزل وأعطته لصديقتها التى تمنت منها التردد عليها وزيارتها.

وشقت السيارة عباب الشارع، تاركة وراءها زوجة أخيها الشيطانة تكاد تميز من الغيظ، وحجرة مظلمة..

وهى فى الطريق أخذت تفكر فى كل ما يحدث لها، كانت تحاول أن تفهم شيئًا أو تهتدى لتفسير لما يحدث ولكنها لم تجد، ووجدت أن أفضل شيء أنها تترك نفسها لهذه الرياح الطيبة المحملة بأيام جديدة وآمال سعيدة تتحقق بقدرة رب الأرض والسماء.

وما إن دخلت المنزل فى أحد شوارع مدينة نصر الهادئة، ونظرت إلى بهو المنزل المتسع، وتلك النمارق المصفوفة، والزهور المنثورة هنا وهناك، شعرت أنها قد دخلت الجنة، وتسربت هذه الفكرة تمامًا إلى عقلها البسيط وفكرها البريء، إذًا قد نفخ فى الصور ولكنها كانت ممن اختصهم الله برحمته ولم تصعق، ولا بد أن جزاء صبرها على ما رأته فى حياتها هو أن تدخل الجنة بغير حساب، فالصابرون فقط هم من لا يقام لهم حساب، وعلام يحاسبوا وقد بشرهم الله بذلك! فقد نجحوا فى الامتحان

والابتلاء ورضوا بما قسمه الله لهم فى الحياة الدنيا، ولم يسخطوا أو يعترضوا.

وجاءت خادمة وهمت أن تحمل عنها طفلتها، ولكنها نظرت فى حيرة وضمت ابنتها لصدرها، وهنا قال زوجها:

- لا تخشى عليها، ستكون بأمان معها، ستقوم على إطعامها وراحتها بالحجرة المخصصة لها.

واطمأنت، وأخذت الخادمة الطفلة وغادرت بهو المنزل، وجلس هو بجوارها ينظر إليها فى صمت، أما هى فقد كانت فى حالة عدم اتزان، تلك الحالة التى تعقب الحزن الشديد، وكأن الإنسان يستيقظ من سبات عميق، ولا يصدق ما كان يحدث له، ولا بد أنه حلم مزعج كان يمزق النفس ويضنى الجسد، ولكنها استيقظت من هذا كله، وهاهى قد وجدت نفسها فى الجنة بغير حساب.

وساورها الشك أن الذى يجلس بجوارها ملاك أو جن صالح، وأنها دخلت قصرًا مسحورًا، وأمسك هو بكأس وجعلها ترتشف منه، وأخذها إلى حجرته، وكانت هى مستسلمة ومطمئنة، فهى قد دخلت الجنة، ولا يوجد فى الجنة ما يخشى منه، بل الاطمئنان نفسه، والسكينة بعينها، والراحة الأبدية، والخلد فى النعيم.

وأخذها هو بين أحضانه وضمها إليه فى حنو.. ثم همس فى أذنيها أنه قد مضى زمن الشقاء والعذاب، وأنه سيجعلها أسعد امرأة فى الدنيا، وكلمة الدنيا جعلتها تفيق شيئًا فشيئًا.. وسألته:

- سيدى.. قل لى بالله عليك.. هل هذه الجنة؟ أم ما كنت فيه قبل ذلك هو الحلم؟ وهذه هى الحياة؟

فضحك هو قائلاً:

- نسأل الله أن يدخلنا الجنة برحمته وكرمه وإحسانه، إن هذا المنزل أصبح جنة بدخولك أنتِ فيه.. وكونك زوجتى.

وشعرت أن كلامه قد أسكرها حتى الثمالة، وبدأت تستعيد الإحساس بجوارحها رويدًا رويدًا، وبدأت تتذكر أنها أنثى شأنها شأن النساء.....

كانت على قدر كبير من الجمال الذى أرهقته الأيام العصيبة التى رأتها، ورآها كأنها أجمل امرأة فى الدنيا، وأصابه السكر والنشوى كما أصابتها هى...

أما ما جعله يفيق من هذه النشوى وهذا العشق الذى ولد مبكرًا.. هو ما رآه من أثر السياط والضرب على ظهرها، وحاول هو ألا تشعر بدموع عينيه التى انسكبت فى حرقة، وكان ذلك

كافيًا لمعرفة مدى ما رأته هذه المسكينة من عذاب ما لا يطيقه بشر، ولكنها ضبطت وجنتيه مبتلتين، فطفقت تمسحهما بيديها فى رقة وحنان، وسألته عن ذلك، ولكنه لم يشأ أن يخبرها لولا إصرارها على معرفة ما جعله يدمع فى هذه اللحظة وهو معها..

وأخبرها بمدى حزنه العميق على ما رأته من عذاب وقهر.

ولكنها ابتسمت قائلة:

أقسم لك أننى بعد جلوسى بين يديك نسيت كل ما رأيته من عذاب وهوان فى حياتى كأنه لم يحدث، وأن كل تلك الأيام والليالى ما هى إلا يوم أو بعض يوم.

مضت الليلة، وأراح رأسها على كتفه وأمعن النظر فى عينيها الثملتين للحظات..

وجدت فرصة أن تسأله السؤال الذى حيّرها:

- متى رآها. وكيف حدث ذلك؟

وأطرق هنيهة ثم أجاب:

- بالتأكيد أنك ما زلت تذكرين اليوم الذى ذهبتى فيه إلى مكتب التأمينات لتقديم طلب للحصول على مبلغ من المال وحدث ما حدث.

وأجابته:

- أجل.

وأكمل هو:

- لقد قص لى الموظف الذى رجع شقيقك إليه واقتلع منه أوراقك التى تقدمتى بها .. وكان يبدو عليه أنه غير سوى.. وحينما قص علىّ هذا الموظف وهو صديق لى ماحدث.. شعرت بأن قلبى ينفطر عليك بدون أن أراك.. ومن حسن الحظ وتوفيق الله أنه ظل متذكرًا لعنوانك وبياناتك، وحدث بعد ذلك ما تعرفينه،

وارتمت هى بين أحضانه قائلة:

إن الله قد أرسلك لى كى تنقذنى من الغابة والوحوش التى عشت معها ما عشته من أيام حالكة الظلام.. وحاولت أن تقص عليه بعض تلك المعاناة، لكنه وضع أطراف أصابعه على ثغرها، وقال:

- فلتنسى كل ما رأيتيه من عذاب، ولا داع لتذكره الآن أو فى أى لحظة أخرى.. سأفعل ما فى وسعى كى تحيى حياة طيبة لا نصب فيها ولا ألم.. وأخذها مرة أخرى بين ذراعيه...

كان آذان الفجر منبهًا لهما من هذه النشوى والسعادة التى انسكبت فى قلبهما وجسدهما، وبعد أن أديا الصلاة، واقترب منها وقبّل يدها، قالت له:

ـ لـى أمنيـة حلمـت بهـا كثيـرًا... أود أن تكـون ابنتـى حافظـة للقـرآن الكـريم.. فقـد كان أنيسـى فـى وحشـتى.. ونـورًا فـى ظلمتـى.. ونـذرت ذلـك منـذ ولادتهـا لسـبب حينهـا لـم أعرفـه... أود أن تهتـم بهـا وتحقـق لـى هـذه الأمنيـة.. وأن يكـون ذلـك قربانًـا إلـى لله أتوسـل إليـه أن يقبلـه...

فابتسم هو وقال:

ـ فليكن ذلـك بمشـيئة الله، وأعاهـدك أن أرعاهـا كأنهـا ابنتـى بحـول الله وقوتـه.

وأجلسها بين يديه.. وأكمل حديثه:

أحمـد الله أنـه رزقنـى الزوجـة الصالحـة، وامـرأة ذات قلـب طيـب مثلـك، وذات جمـال جعلنـى لا أرى امـرأة فـى الدنيـا سـواها...

انتهت

obeikan.com

الفهرس الصفحة

إهــداء :........................	٥
مقــدمة:........................	٧
جزر بولينزيا:......................	٩
أسيوط ...البلد العتيق:.................	٥٧
الجامعة:.........................	٦٧
يوسف.... أيها الصديق:.................	٧٣
العاشق المتيم:......................	٧٧
مدد يا دكتور:......................	٨١
مدد يا شيخ صالح أبو خليل !!!:............	٩١
مع المخابرات... كانت لنا مغامرات:.........	١٠٧
صديقى عمر بن الخطاب!:...............	١٢٧
دموع على وجه القمر:..................	١٣٥

obeikan.com

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر

obeikan.com